الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع البدوى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٦ — ٢٣ شوال سنة ١٣٥٧ — ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
١١٨٦	بين العدالة والقانون . . .	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة . . . . .
١١٩٦	جرذان الفنادق	للكاتب الانجليزى أرثر كونان دويل	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة . . . . .
١٢٠٤	روض الفرج	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ . . . . .
١٢١٢	أحية أم ميتة ؟	لشاعر الهند وفيلسوفها « طاغور »	بقلم الأديب ذكرى شهاب السعيدى
١٢٢١	السكيرة	للقصصي الفرنسى بى دى موباسان	بقلم الأديب كمال الحريري . . . . .
١٢٢٥	حاجى بابا أصفهانى	للكاتب الانجليزى جيمز موير . .	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار . . .

بين العدالة والقانون

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ دريني خشبة

— وماذا تستطيع أن تنال بالعنف ياصديق إبراهيم ؟ لم لا تلجأ إلى قدس القضاء تعرض عليه شكواك ؟

— لن ألجأ إلى هذه الوسيلة العاجزة ياصديق ؟

— القضاء وسيلة عاجزة ؟ ماذا تقول ؟ لقد بلغ القضاء في مصر ذروة العدالة ، بل هو في مصر أنزه منه في كثير من الأمم التي تفوقنا حضارة ... فكيف تنعته بالعجز ياصديق ؟

— أنا ياأخي لا أنعت قضاءنا بالعجز ، وإن اقتناعي بنزاهة قضاتنا لا يفوقه اقتناع . لكنني مع ذلك أعده وسيلة عاجزة في رد الحقوق ، وإن شئت التخفيف من حدة التعبير ، فقل إنه وسيلة بطيئة بطئاً يشبه حبو المقعد

— أنت تقسو في حكمك ياإبراهيم !

— لست أقسو ، إذ هذا هو الواقع ، بل هذا هو الذي يشجع أخانا على هضم حقوقنا .. إنه خبير بأحوال محاكمنا وتعقد الاجراءات القضائية فيها ، ثم هو مطمئن من أجل هذا إلى خشيتنا وشدة تخوفنا من أن ندخل المحكمة . وهذا شعور عجيب يلابس الطامعين وآكلي الحقوق ويجعلهم يفترسون الضعفاء ويخرجون من مساومتهم باغتيال حقوقهم واضطرارهم إلى قبول ما يعرضون عليهم صاغرين !

— إذن هذا هو شعور العجز !

— عجز من ياصديق ؟

— عجزك أنت إنك بكلامك هذا تبرهن على أنك رجل غير مقاحم ، تؤثر أن تعيش على هامش الحياة ، دون أن تخوض عبابها فتصارع الأهوال فيها !

— أنت تظلمني ياعبد الكريم ، بل أنت لا تفهمني !

— بل أنا أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك. إنك مع خشيتك من اللجوء إلى القضاء ، وهو الطريق الأوحد الذي تنال به حقوقك ، تدعي أنك ستنال هذه الحقوق بالعنف ، فماذا عساك تفعل ؟

— سأقتله !

— أنت ؟

— أجل ، أنا !

— إنك لن تستطيع هذا !

— ولم لا أستطيع ؟

— لأنك رجل مهذب لا ترضى أن تلوث يديك الشريفتين بالجريمة . ومع ذلك فالقضاء الذي تفر منه اليوم ، هو الذي سيطاردك حتى يثأر لأخيك منك ... على أنني لا أدري علام تريد قتل أخيك !

— لأنه ظلمنا !

— وكيف ظلمكم يا صديق ؟ أليس أبوك — عليه رحمة الله — هو الذي نزل له عن هذه الدور والضياع ؛ هل اختلسها منه مصطفى ؟

— أبي لم ينزل لأحد عن أملاكه !

— تريد أن تقول إن هذا عمل مزور ؟ أليس كذلك ؟

— لا ... وليس هذا أيضاً !

— إذن ماذا يا صديقى ؟

— لقد كان أبى يضارب بأمواله فى التجارة وقد أراد أن يصون ثروتنا بالنزول لابنه الأكبر عنها ... فهو نزول صورى كما ترى

— إذن هى اللعبة التى يلجأ إليها الناس ليأكلوا أموال غيرهم إلى أموالهم ؟

— لقد كان أبى رجلا شريفاً ، ولم يسع يوماً إلى أكل أموال أحد ...

— وأنت مع ذلك تجيز تصرفه وتبرره ؟

— ... ؟ ...

— وهل كسب أبوك فى مضاربته أم خسر ؟

— لقد خسر خسارة فادحة !

— ومن الذى احتمل خسارته وقد نزل لابنه هذا النزول الصورى عن أملاكه ؟

— احتملته الشركة التى كان يعاملها !

— وأموال هذه الشركة حلال لأبيك يضيعها بمضاربته فى غير مبالاة ؟

— لو أنه ربح لربحت الشركة مالا عظيما ... وكم من مرة أربحها الألوف !

— إذن لم يكن أبوك تاجراً ، بل كان ... عفواً يا صديقى !

— عفواً ماذا ؟ ماذا كنت تريد أن تقول ؟

— لو كان الرجل الذى نتكلم عنه رجلا آخر غير أبيك لقلت إنه كان لصاً ولم يكن تاجراً ! ...

— إنك تهينني يا عبد الكريم !

— عفواً يا صديقى فوالله ما أردت إهانتك قط ، وقد عرفت أباك ، فعرفت فيه النبل وحميد الخصال .. غير أن محاولته صون ثروته بهذه الوسيلة كان ضعفاً منه ، لأن الذى لا يجيد السباحة يخلق به ألا يلقى بنفسه فى اللجة ، وكذلك التاجر الذى يعتمد على الله فى كسب قوته ، يخلق به ألا يكون مغامراً ، فاذا لم ير بأساً فى أن يكون كذلك ، فلا يخلق به أن يتجرد من كل فضائله ظناً منه أن المقامرة ليست أعلى درجة من اللصوصية

— وماذا كنت تريده أن يصنع إذن ؟

— كان الأفضل أن يدخل المعترك وثروته من ورائه تسنده وتشد أزره ،

— وكيف كانت تسنده وقد خسر خسارة كانت تذهب بكل ما يملك ؟

— لو حدث هذا لكان بقى له شرفه ، والتاجر الذى يخسر ماله ولا يخسر شرفه يستطيع أن يستعيد المال إذا بدأ الشوط من جديد . . . أما أنه يستحل أموال الناس فيأكلها بالباطل فهذا هو ضياع الشرف ، والتفريط فى الكرامة التى جعلها الله تاج عباده من بنى آدم ... على أنه ما استفاد أبوكم ؟ لقد قعد ملوماً محسوراً يبقى على القليل من المال الذى أضاع حتى مات من الهم ، وتركك أنت وأخاك الأصغر وأختك الصغرى فرائس لجشع أخيكم يستبد بكم ، ويذيقكم لباس الجوع والخوف ، دون أن يرعى الله فيكم ، ولا أن يرجو خشيته ! !

— لهذا أردت أن أقتله يا عبد الكريم !

— أنت تعود إلى نغمة لا أحب أن ترددها أمامى وأنت تبرهن مرة أخرى على ضعفك واستخذائك ... والرجل الذى يهرب من القضاء العادل لأنه بطىء كما يدعى ، لا يستطيع أن يقتل دجاجة

— إذن ماذا أصنع غير أن ألتجىء إلى القضاء ؟

— وحتى القضاء يا إبراهيم لم يعد لك أمل فى أن ينتصف لك !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن القاضى سيجد نفسه مقيداً بعقود بيع رسمى من أبيك لأخيك ، فماذا يصنع ؟

— إنها عقود باطلة !

— هذا كلام تقوله أنت ، وقد تفهمه العدالة التى تتصورها ، لكن القضاء الرسمى لا يفهمه !!

— القضاء الرسمى ؟! هاها ... ألم أقل لك ؟

— ألم تقل لى ماذا ؟

— ألم أقل لك إن القضاء كما يجرى عندنا هو أحسن وسيلة لنصرة الظالمين وإضاعة حقوق المظلومين ؟ القانون ! آه من قانونكم يارجال المحاكم ! القانون الذى أصبح فى اختلاف تفسيره اختلاف توزيع العدالة ، فهذا قاض يحكم ويزعم أن حكمه العدل المحض ، فيأتى قاض آخر يلغى هـذا العدل المحض ويصدر حكما يناقضه ، فيكون العدل المحض الذى صدر عن القاضى الأول ظلما محضاً ، ثم مايلبث قاض ثالث أن ينقض الحكمين جميعا ويصدر هو عدله المحض ، ولا تدرى العدالة بين القضاة الثلاثة أين موضعها ولا أيان مستقرها

— فى كل ذلك تمحيص للحقيقة يا إبراهيم

— تمحيص للحقيقة ؟! ما شاء الله !! وفيـه أيضـا إجاعة المساكين وصرف لهم عن مرتزقهم وإنفاق على المحامين وإضاعة ما يملكون من كفاف العيش ليحصلوا على ثمن تذكرة يسافرون بهـا إلى مقر المحكمة ... وفى كل جلسة يحسبون أنها الأخيرة فتكون الأولى ، وينطلق القاضى فيؤجل ويؤجل. وينتحل الأعذار للتأجيل ، وكلما زين لهم محاميهم الآمال تبددت أمانيهم بين شفاه القضاة ، فعادوا إلى بلادهم محسورين

— وماذا عسى القاضى أن يصنع وهو يقف أمام براهين قانونية ومواد مكتوبة ترسم له خطاه ؟

— لست أدرى ماذا يصنع القاضى لأنى لست قاضيا ، ولو كنت قاضيا لرفضت أن أنظر مائة قضية فى جلسة واحدة لاتستغرق ساعتين !

— وهذا أيضاً لا يد للقضاة فيه يا صديقى !

— كل شىء لايد للقضاة فيه ، وهذا هو الذى يصرفنى عن مقاضاة أخى .. وقد أفقتنى من حلمى.. لنفرض أن القضاء عندنا يسير فى مجراه السريع .. ولنس هذه القضايا المكدسة فى محاكمنا ، والتى يكون قد مضى على آلاف منها سنون وسنون ولما يصدر فيها حكم نهائى ... ولنس جشع المحامين وتلاعبهم بتفسير المواد ليُصَيِّروا الظلم حقاً والحق باطلاً ... لنس هذا كله . . . فقد أرحتنى بصراحتك من الالتجاء إلى قانوننا لأنه لن ينصرنى.. قل لى إذن يا صديقى المحامى ماذا أصنع لأنال حقى من أخى ؟ وماذا يصنع أخى وأختى ليردا حقوقهما المغتصبة !

— لقد قلت لك كلمة القانون يا إبراهيم !

— كلمة القانون التى لا تجمل لأحد منا حقاً عند أخينا !

— لقد فهمت تماماً ما أردت أن أقول . . . وأرجو ألا أثيرك بهذا فأنت تستثيرنى ، وبما أننى صديقك أحببت ألا أخدعك !

* * *

مسكين هذا الشاب البائس إبراهيم !

لقد انصرف عنه صديقه المحامى بعد أن فاجأه بموقفه وموقف إخوته من القانون تلقـاء شقيقهم

الأكبر ، ثم جلس وحده يفكر . . . ويقدح زناد التفكير ، بيد أنه مع ذاك لم يستقر على رأى

لقد لجأ قبل أن يلقى صديقه المحامى إلى ذوى المروءة من أهله وأعيان بلدته ليكونوا شفعاءه عند أخيه ، لكن أخاه لم يلن ولم تتحرك عاطفة واحدة من عواطف الرحمة فى قلبه ... لقد استولى على قلب أخيه شيطان الدنيا ... لقد استحوذ عليه حب المال فأعماه وأضل بصيرته . . . لقد استذله سلطان المادة فأنساه هذه المعانى السامية التى تصل بيننا وبين الله بصلات النور والهداية

ماذا يصنع إبراهيم ؟ ليكن هذا المال الذى نزل عنه أبوه لولده اتقاء ماتتمخض عنه المضاربة التجارية مالاً غير حلال، لأن العدالة لاتجعله حلالاً لأحد من أبناء التاجر المتوفى ، لكنها تجعله حلالا للشركة التى وقعت على رأسها الخسارة من جراء هذا التهريب

وليكن هنـاك هذا الفارق العظيم بين العدالة والقانون

لكن العدالة فى نظر إبراهيم ليست هى العدالة المطلقة التى تعرفها الفلسفة . . . إنه يعتقد ، بل هو يجزم بأن الثروة التى نزل عنها أبوه لابنه الأكبر عن طريق تصرف قانونى صحيح ، هى حلال لأبناء المتوفى جميعاً ... وليس مما يمنعه أن يكون هذا المال حلالا أو حراماً ، لأنه إن كان مالا نجساً فهو بأيلولته للورثة قد تطهر كما يتطهر مال الربا بوفاة المرابى فلا يحرم أكله على أبنائه

ثم إن إبراهيم لا يقر اللعبة التى انتهت باستيلاء أخيه على كل ما كان يملك أبوه

وهو لا يحترم هذا القانون الذى يحرمه ظلماً من ميراثه لأنه يعرف وجميع إخوته يعرفون أن أباهم لم يكن يقصد إلى تلك النتيجة الخائبة التى انتهى إليها تصرفه المعيب

وهو يقف الآن حائراً فى منتصف طريق الحياة لا يدرى أين يذهب ولا كيف يسير

إنه ما يزال يشدو العلم فى مدارس القاهرة ، فليس فى يده سلاح يغنيه عن هذه الثروة المغتصبة الضائعة ؛ وهو شاب عصبى المزاج ، يفكر تفكيراً غير سليم ولا مستقيم وإن كان فيه كثير من الوجاهة

إنه ينظر إلى معترك الحيـاة بمثل النظرة التى ينظر بها أهل هذا الزمان ... نظرة المال !

إنه يرى كل شىء قد قام فى زماننا على دعامة من الذهب ... فالتعليم الراقى لا يناله إلا القادرون عليه من أبناء الأغنياء ولو كانوا أحط فى مراتب الذكاء من أبناء الفقراء ... والتعليم الراقى يصل المتعلمون إلى مناصب الدولة الكبيرة فى حين يحرم منها أبناء الفقراء لأنهم لم يتعلموا ، والديمقراطية نفسها هى عنده كذب فى كذب ، لأن معناها فى اعتقاده وصول الأغنياء القادرين على الانفاق على المعركة الانتخابية إلى كراسى البرلمان ، فيجتمع ثمة رهط من المستبدين الأرستقراطيين ليتشدقوا بأنهم ممثلو الديمقراطية

فالتعليم ومناصب الدولة وكراسى البرلمان وقف فى نظره على أبناء الأغنياء ، وإذا أحد من أبناء الفقراء وصل إلى إحداها بغلتة من القدر ظل منظوراً إليه بأعين الريبة والامتعاض فى كل وسط يغشاه ، وهذه الأعين هى أعين الأغنياء ...

لقد كان ابراهيم يطمع فى مستقبل هو له أهل

ومن أجل هذا فكر فى الحصول على نصيبه من ثروة أبيه بأى طريق ، لأن المال وحده هو الذى ينيله ما يروم من جاه وسعادة وبلهنية ... وإذا فقد المال فقد القوة الدافعة ، وإذا فقد المال قعد فى بلدته الخاملة الصغيرة وحرم من التعليم ، واضطر لأن ينافق أخاه ويمرغ جبينه تحت قدميه من أجل اللقمة والكساء ، وبذلك ينحط إلى درجات العبيد

لقد قسا عليه أخوه ، ولم ينفق عليه بعد موت أبيه إلا كما يتصدق بخلاء اليهود ... وكان يصحب كل قرش يرسله إليه بالمن المؤلم والأذى المرير ... وقد طفح الكيل حينما أنذره أخوه أنه لا يرى ذهابه إلى المدرسة ، وأنه يفضل أن يبقى ليساعده ، وقد فهم إبراهيم هذه المساعدة على أنها حرمان وتسخير ، فهمها على أنها أول الاستعباد ، ومن أجل ذلك صمم على أن يستخلص حقه من أخيه ولو أدى ذلك إلى قتله :

ما أبشع القتل !

لقد كان مصمما على الجريمة قبل أن يلقاه صديقه المحامى عبد الكريم ، لكن عبد الكريم كان صريحا فى النصح إليه ... لقد قبح إليه الجريمة ، والانسان العصبى سهل القياد ، يثور بسهولة ، ويهدأ بسهولة أيضاً ، لكن صديقه قد أغلق فى وجهه كل باب ... باب الجريمة وباب القانون على السواء ... وباب العدالة مغلق بطبعه لأن قلب أخيه الأكبر مغلق بطبعه كذلك ... فماذا يصنع ؟

هل يخضع لما يريد له أخوه من قهر واستعباد ومذلة ؟ لا ! لن يكون هذا ! فنفس إبراهيم نفس أبيه لا تقبل الضيم ، ولا يروضها شئ على الهوان ... ثم هو يعرف أن إبراهيم الذى يطمع فى ثروة أبيه كلها ... أو الذى ذهب بثروة أبيه كلها ، سيذهب كذلك بالسعادة التى كانت من حق إخوته وسيضمها إلى سعادته هو ، وهو فى هذا لم يبال بالشقاء الذى يجره فقر إخوته عليهم والذى هو سببه ، فهو بهذا لص ، والعدالة تعتبره هكذا

كره إبراهيم أن يقتل أخاه إذن ، وكره لنفسه أن يلوث يديه بدم الجريمة كما ألقى عبد الكريم فى روعه ، لأنه شاب مهذب ... أو لأن القانون سيطارده ، وسيأخذه بدم أخيه إن فعل ... وقد هال إبراهيم أن يكون صاحب الحق فيقتل ثم يُقتل ... ماذا يستفيد من ذلك ؟ هل يستفيد شفاء نفسه من الحرد الذى يثيره الظلم فيها ؟ لكنه سيدفع الثمن ... وسيدفعه كبيراً مضاعفا ... سيسلم رأسه للجلاد ... سيخرج من هذه الدنيا الجميلة المشرقة دون أن يستمتع بحقه فيها ... ثم هو سيترك أخاه وأخته فريستين لأخيه الظالم ، وهو بهذا سيحرمهما من القلب الأوحد الذى يشفق عليهما ويرق لآلامهما ... بل هو سيحرمهما من النصير الذى يعرف أحزانهما ... وإذا خلا مكانه فى وجودهما فسيشغله مصطفى ... وسيشغله مصطفى بالاستعباد والقسوة والمن ... وستكون كل لقمة يأكلانها من يده ، أو جرعة ماء يشربانها فى ظله سما زعافا يمزق أحشاءهما ويهرأ كبديهما .. وحسبهما أن يكونا خادمين من خدم مصطفى ... أو كلبين من كلابه ...

ما أقسى المقادير على إبراهيم !!

* * *

صبر إبراهيم برغمه ... وماذا يملك العاجز غير الصبر ؟

وأزف موعد العودة إلى القاهرة حيث تفتح معاهد العلم أبوابها ... فانقلب صبره إلى جزع ... وكلما لقى زميلا من أقرانه فتحدث إليه عن السفر ، اربد وجه إبراهيم ، وشاعت الكآبة فيه ، وحبس الدموع فى مآقيه ، ثم استأذن وانصرف

وكان يوم أوبة الطلاب إلى معاهدهم ، وخرجوا إلى المحطة فى أهلهم وذويهم فرحين مستبشرين ... لكن إبراهيم لم يذهب إلى المحطة ذلك اليوم ، بل استخفى فى حجرته الضيقة ، حجرته التى ينتزعها القانون منه فيعطيها لأخيه لأنها جزء من المنزل

لقد صار الهواء خانقاً حول الشاب البائس ... لقد رأى الثروة تفلت من يديه باسم القانون ... وشهد سعادته تزور عنه وتشيح بوجهها الجميل الخلاب ...

نظر إلى جدران الغرفة فأوحت إليه بأفكار غريبة سوداء ، وشهد الأبالسة ترقص فوقها تغريه بالشر ، وتمد إليه السكين المرهف المشحوذ ، وتصفر فى أذنيه ، وتضربه فى ظهره ، وتكلمه كلاماً عجيباً لم يكن من دأبه أن يسمعه من قبل

— لم تجلس بليداً هكذا ؟ لم يفوز أخوك بهذه الدنيا كلها ويطردك من فردوسك إلى ذاك الجحيم ؟ سيكون لك أبناء كما أن لأخيك أبناء ، فلم تقذف بفلذات كبدك إلى أيدى الشقاء والتعاسة فى حين ينعم أبناء أخيك بخير ما فى الحياة من نعم وملاذ ؟ سيتعلم أبناء أخيك ويصبحون أطباء ومحامين ويفوزون بمناصب الدولة وكراسى البرلمان ، أما أبناؤك وأما أنت ، فلن تجدوا حتى ما يملأ بطونكم إلا بشق أنفسكم ، ولو أنصف القانون لكنتم مثلهم إن لم تفوقوهم لأنكم عبقريون !

— قم يا شيخ ! لا ترض هذا الهوان الذى أنت مقاسيه ! كيف يدعى أخوك أنك لا تملك حجراً من هذا البيت المنيف ؟ إنه إن شاء طردك الآن فلا يكون لك مأوى إلا بيوت المحسنين ؟ وإذا كان ذلك فماذا يكون فرق ما بينك وبين الشحاذين ؟ قم ! إنه لا يستحق إلا القتل ! القتل وحده ينجيك مما أنت فيه ! تستطيع أن تحتاط فلا يراك أحد وبذلك تستعمل القانون فى براءتك كما استعمله أخوك فى سلب حقوقك ! أليس يحكم القضاة ببراءتك إذا لم تقم أدلة تدينك ؟ لن ينهض ضدك برهان على أنك صنعت هذا ! أليس بمثل ذلك ضاعت أموال الشركة التى ضارب بها أبوك ؟ ألوف من الجناة والنصابين واللصوص والمبارين يفلتون من أيدى العدالة لأنهم لا يقعون فى شراك القانون ! وهم يفكرون فى الجريمة والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل قبل أن ينفذوا خططهم فتجىء محبوكة وتطيش حولهم سهام القانون !

— هلم ! لا تكن جباناً !

وهكذا ظلت الشياطين عاكفة على فؤاده تزخرف له وتنفخ فيه حتى تشجع قليلا وأخذ يفكر فى الجريمة بالفعل ؛ وهونها عليه أن أباه وأخاه قد سبقاه إلى استخدامها من قبل ، فقد استخدمها أبوه ليأكل أموال الشركة ، واستخدمها أخوه ليفوز بكل الثروة التى نزل له عنها والده حتى لا تستولى عليها الشركة فيما إذا حاقت به الخسارة المالية ، فلم لا يستخدمها هو ؟ بل هو يستخدمها لغرض أسمى ، إنه سيستخدمها للانتقام من أخيه الذى يريد أن يقتله قتلا مدنياً حيث يعيش فقيراً معدماً ... وهذا ، كما يفهم

إبراهيم ، هو أشد القتل ، إذ ليس القتل فى رأيه دماً يتدفق من غلاصم القتيل ، بل القتل هو تحويل دم السعادة من مجراه الطبيعى إلى مجرى غير طبيعى باسم القانون ، فيعيش المغتصبة سعادته كالمقتول بل أشد ، لأنه يحيا حينذاك ليتألم حتى يموت ، وليشهد مأساته ويتجرع مرارتها ، بينما الغاصب يحسو أفاويق السعادة التى سلبها من الغير بالغدر ، ويتلذذ دائماً بأن صاحبها الحقيق لم يستطع أن يستردها منه ، وذلك لذته فى نفوس الغاصبين ، بل هم أحياناً يتشدقون به فى تيه وافتخار

إذن ، لقد صمم ابراهيم على قتل أخيه ... ولم يعد يفكر فى فشل محاولته مطلقاً ؛ بل هو قد صمم على ذلك وهو مدفوع بتيار العاطفة المشبوبة التى تأكل صدر صاحبها ، كما تأكل النار بعضها . . . لقد عميت بصيرته هو أيضاً . لقد آمن بعجزه عن السعى فى الحياة كأن أباه لم يترك له شيئاً قط . وهذا هو أكبر عيوب شبابنا ... لقد كبر عليه أن يبدأ جهاده من حيث كان يظن أنه أوشك أن ينتهي .. ومن أكبر عيوبنا نحن الشرقيين أننا سرعان ما نقنط من النجاح فى الحياة لمجرد الفشل الأول الذى نقع فيه ، أو العقبة الأولى التى تعترض سبيلنا ، وقد ننثنى عن مواصلة السعى ظنا منا أن كل شىء قد انتهى . ونحن أقوام نؤمن إيمانا سخيفا بالحظ ، مع أن ديننا هو أقوى الأديان ، ولن نستحيى من أن ندعوه دين القوة والسعى ومواصلة الكفاح مع الاعتماد على الله فى ذلك جميعاً

لقد عبس ابراهيم للحياة وتجهم ، وانطلق يشكو سوء حظه ، ويتسخط على المقادير ، ولم يفكر فى خطة إيجابية قط ، لم يفكر إلا فى الوسائل المنتمة التى ينتقم بها من أخيه ... وألحت الشياطين على فؤاده توسوس فيه وتصرخ ، ثم تغلى دمه ليكون حاراً فواراً يستجيب ولا يتردد

وفكر وهو يشحذ سكينه فى أن يستخدم الرذيلة فى إخضاع أخيه . فكر فى أن يغرى به بعض السفهاء والشذاذ يهددونه ... وفكر فى تلفيق بعض التهم التى يلصقها الأشرار بالأبرياء فتذهب بشرفهم أو بثرواتهم . . . لكنه هزىء بكل ذلك واستسخفه فنبذه ولم يعد يفكر فيه

* * *

وكان لمصطفى مكتب فى الطابق الأول من المنزل يجمع أوراقه ومستنداته ، وإن لم يحو من الثروة الطائلة التى خلفها له أبوه قليلا أو كثيرا . فبينما إبراهيم نازل على الدرج ، وبينما هو يفتح باب الردهة التى تؤدى إلى مكتب أخيه ، إذا فكرة مفاجئة تمر كالبرق فى خاطره . . . ذلك أنه فكر فى أن يقتحم المكتب عسى أن يجد فيه شيئا ينفعه ، وتقدم بالفعل إلى الباب الهائل الذى بدأ يرقص أمام ابراهيم الخائف المذعور ... ولشد ما شده الشاب حين وجد الباب مفتوحا ... فدخل ، وأغلق المكتب ، ثم بدأ يعبث بأوراق أخيه ... ولما لم يجد بها مأربه ، لم يبال أن يحطم أدراج المكتب ثم أخذ ينظر فى الأوراق نظر الخائف الوجل .. وكانت أصابعه ترتجف كلما تناولت ورقة ليرى ما هي ... وكان كثيرا ما ينتفض كلما سمع حركة ، بل لقد هم أن ينصرف حينما سقط أحد الأضابير فأحدث صوتاً مزعجا جمد الدم يتجمد فى عروقه

ثم شع بريق الفرح فجأة فى عينيه !

وطفق قلبه يخفق بشدة !

يا فرج الله ! خطابات من الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله إلى ولده مصطفى يخبره بما صح عليه عزمه من التنازل له عن ثروته بطريق البيع والتسجيل لأنه شارع فى مضاربة إما أن تضاعف ثروته أضعافاً مضاعفة ، وإما أن تذهب بالأخضر واليابس إذا بقى فى يده أخضر أو يابس !

ثلاثة خطابات طويلة عريضة فياضة بخط الشيخ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته تشرح الموضوع وترسم الخطة وتضع التواريخ

لقد كتبها الشيخ من الاسكندرية فى الشهر نفسه الذى تم فيه البيع والتسجيل بالمحكمة المختلطة

هذه هى السكين حقاً ! وهكذا يكون القتل !

* * *

— أنا يا قليل الخير ، يا ناكر الجميل ، أنا الذى سترتك ولمت شعثك بعد موت أبيك ، يكون جزائى منك أن تتجسس علىّ ، وتبحث ورائى ، وتتسلل كاللص إلى مكتبى فتحطم أدراجه عساك تقع على سلاح تغمده فى صدرى ؟

— أينا كان لصاً يا مصطفى ؟ أنا أم أنت ؟

— سلْ نفسك !

— لقد سألتها فقالت إنك أنت كنت اللص !

— لأنى كسرت الأدراج وسرقت ما سرقت ؟

— ليس هذا كل ما يفعله اللصوص !

— وماذا يصنعون أكثر من هذا ؟

— من الناس لصوص لا يحطمون الأقفال ولكن يحطمون حياة الناس ويسلبونهم سعادتهم ، والمؤلم أن القانون لا يدعوهم لصوصاً ، بل هم أمامه شرفاء معقولون

— هذه هى الفلسفة التى تعلمتها من المدارس !

— بل هى الفلسفة التى تعلمتها منك !

— وماذا سرقت من مكتبى إذن ؟

— أنا لم أسرق شيئاً ذا قيمة فاطمئن !

— أنا مطمئن يا إبراهيم ، فأنا لا أضع مليما ولا مستنداً فى مكتبى ، ولا فى بيتى ، وأنا واثق أنك لن يهدأ لك بال حتى يخرب منزلى

— وإن لم تتق الله فىّ وفى أخويك على وسعاد فسيعجل الله خراب بيتك ، وإنى أنذرك من الآن

— ولن يستجيب الله لك إن شاء الله

— أنا لا أبلغك يا مصطفى ! إن لم ترد إلينا ما هو حق لنا فلن يبقى لك مليم واحد من ثروتك الواسعة ينعمك ، وعندها تمض على أناملك الندم !

— وكيف ؟ أى حق لكم عندى ؟

— ما كنا نرثه لو لم ينزل لك والدنا عن ثروته حتى لا تضيع بالمضاربة !

— لقد باع لى أبوكم بيعاً حراً مسجلا ، وقد أخذ نقودى فضارب بها فضاعت ، ولولا ذلك لكنت اليوم أغنى حالا مما أنا فيه !

— هذا هو الكذب والتلفيق الرخيص لأنك لم تكن تملك ستين ألفاً من الجنيهات !

— لقد نظرت هذه المسألة أمام المحكمة المختلطة وثبت بالقانون أننى كنت أملك أكثر من هذا المبلغ لأننى كنت شريك والدى فى تجارته وقد شهد التجار وشهدت العقود بذلك ، ولسنا بحاجة إلى حجتك يا سيد إبراهيم ؟

— ستعرف أن كل هذا باطل إن لم ترد إلىّ حقوقى كاملة ، وإن لم ترد إلى أخوىّ حقوقهما كاملة كذلك ؟

— ليس لكم عندى حقوق فافعل ما بدا لك

إن استطعت أن تفعل شيئاً !

— سترى أنى مستطيع عمل كل شيء ، ولكنى أسمعك خطاباً كتبه إليك أبوك عما كان ينتوي عمله قبل أن يبيع لك أملاكه هذا البيع الصورى الذى تتشبث الآن به كأنه حقيقة لا ريب فيها يا سيد مصطفى ، فاسمع :

وشرع إبراهيم يقرأ الخطاب الأول ، وما كاد يصل إلى نصفه حتى مادت الأرض تحت قدمى مصطفى : وحتى انطفأ نور العالم الجميل فى عينيه .. ولم ينتظر حتى يتلو أخوه الخطاب كله . بل هب كالعاصفة ، وانقض على أخيه السكين فطعنه فى صدره وبطنه عدة طعنات بسكين كان يحملها معه ، وكانت لا تفارقه فى روحاته وجيئاته ...

ووقع ابراهيم يتشحط فى دمه ، وأسرع مصطفى فتناول الخطاب الذى كان أخوه يتلوه . ثم دفع يديه فى جيوبه يبحث عن خطابات أخرى أو وثائق من هذا الصنف الخطر الذى إن وصل إلى خصومه من رجال الشركة لم يبق له من حطام فردوسه شيء ...

وترك أخاه يجود بأنفاسه ، ثم أسرع فغسل يديه وأحرق ملابسه التى علق بها شيء من دم أخيه وساعدته زوجته فى كل ذلك . ثم صعد إلى حجرة أخيه فبحثها بحثاً دقيقاً عله يقع على شيء مما دبر ابراهيم له . لكنه لم يقع على شيء

أرأيت إذن ؟ !

لقد فكر ابراهيم فى الجريمة ثم عدل عنها ، ثم صمم على ارتكابها ، لكنه حينما عثر على خطابات أبيه نسى القتل ونسى السكين ، ونسي كل شيء ، لأنه حسب أنه انتصر ... وأن أخاه سيخضع له إو تذهب كل ثروته ... وهكذا انتفت فكرة القتل بسرعة زائدة من خاطره ، بعد أن فكر فيها خمسين أو ستين يوماً على الأقل . .

أما مصطفى !... فيالهول ! لقد رأى خرابه فى هذا الخطاب الذى راح يتلوه إبراهيم عليه ، فلم يفكر إلا لحظة ... لحظة واحدة ... واندفع كالذئب يغمد سكينه فى صدر أخيه حتى تخيب مؤامرته ، وحتى لا تضيع ثروته ، وحتى لا تأخذ العدالة مجراها ، وحتى ينتصر القانون . . . القانون الذي لا جرم كان يحكم على مصطفى وينزع منه أملاكه ويردها إلى الشركة لو أنه فاز بالخطابات التي مع إبراهيم ! والقانون فى ذلك يشبه السكين تماماً ، أو يشبه الدفع يكون فى يد المحارب يصب منه النار على أعدائه ، فاذا سقط هذا الدفع فى يد الأعداء لم يتوانوا عن صب ناره فوق رأس صاحبه !

هنا إذن فرق ما بين إبراهيم ومصطفى ...

لقد كان إبراهيم شاباً مهذباً قرأ التاريخ والأدب ودرس الدين وعرف الله ... ولذا لم يستطع أن ينفذ الجريمة التى اعتزمها لأنه لم يجبل على الشر ولم يجر الشر فى دمه . . . ولما وجد الخطابات حمد الله واستبشر ، لأنها جنبته هذه الخطة الدامية التى كان فى شك من مصيرها

أما مصطفى فلم يفكر كثيراً . . . إنه استهول أن تضيع ثروته التى يفضلها على كل شيء ، فلم يبال ديناً ولا رباً ولا ضميراً . . . ولذلك لم يكلفه الفتك بأخيه شيئاً إلا أن ينقض عليه كالبرق ، وأن يغمد سكينه فى صدره !

لم يقتل إبراهيم ! بل ظل فى المستشفى شهراً وبعض الشهر ، ثم خرج منه سليما معافى

ورفض أن يتهم أخاه ! وأربك صمته رجال القضاء وحيرهم ! ترى علام عول ، وماذا اعتزم ؟ !

لقد فتح ذلك الحادث الرهيب عينيه على حقيقة الدنيا ...

نضال !

أليست الدنيا نضالا فى نضال ؟ فلماذا تكون نضالا من هذا الصنف الوضيع ؟ لماذا تكون نضالا على ميراث ؟ لماذا لا تكون نضالا شريفا ؟ لتكن كذلك إذن ... وليبدأ إبراهيم النضال الشريف من أجل الرفعة إذن ... إن الدنيا ليست لمن ورث الثروة بل هى لمن عمل عليها وملكها بكده وكدحه ، وإن الذى يملك الدنيا من هذا السبيل ليشعر بلذة حلوة سحرية ، ليس يشعر بمثلها الذى ملكها من طريق أبيه ... مثال ذلك الطير إذا وقع على الفريسة بعد أن يرمقها ويتخيرها فهو ينشب أظفاره فيها بفخار وعظمة ، أما الفريسة التى تسقط على الطير فقد تكون جيفة تقتله أو تصدمه !

هذا هو الوحى الجديد الذى هبط على إبراهيم ! وهو وحى كريم طيب خير وإن نبع من جراحات وكلوم ، وارتوى من دم كريم طيب خير مثله !!

وتبسم ابراهيم تبسمة خبيثة هي بقية الشر فى نفس آدم !

ذلك أنه سمم هـذه المرة على أن يشرك أخاه مصطفى فى هذا النضال !!...

فكرة عجيبة !! لكن تنفيذها سهل هين ! إن الخطابات التى وقع عليهـا فى مكتب أخيه محفوظة فى مكان حريز لم تمسسها يد ... أما الخطابات التى أخذها مصطفى حينما طعن أخاه ، فهى صور نسخها ابراهيم ، وقلد فيها خط أبيه تقليدا عجيبا انطلى على مصطفى ولم يجعله يشك قط فى صحتها

وهكذا ذهب إبراهيم إلى رجال الشركة فساومهم على مبلغ كبير جداً لقاء هذه الخطابات التى ترد عليهم أموالهم حين يستصفون أملاك الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله ، وتجاوز عن سيئاته

ولما خرج مصطفى من المحكمة صفر اليدين ، نظر حوله إلى الدنيا الواسعة الجميلة فلم تبسم له على جارى عادتها ! بل لعلها تبسمت ساخرة منه ، ولعل هذه الابتسامة هى التى جعلته يشحذ سكينه فيغمدها فى صدره ، لأنه لم يطق أن يذهب إلى المنزل المنيف فيقال له : « كلا أيها السيد ، ليس هذا منزلك ! » ولأنه عاش حياته لا يصل بينه وبين الله ، بل هو لم يعرف له إلهاً غير هواه ... ولو قد عرف الطريق إلى الله لحسنت آخرته وحسنت دنياه ...

وأتم ابراهيم تعليمه ... وظفر فى الحياة وناضل من أجل الثروة .. لكنه برغم ماجمع وبرغم ما اكتنز لم يبارح خياله طيف أخيه ، فكان يبكى من أجله ويستغفر له ربه ، ويجعل بين يدى نجواه صدقات يغمر بها أبناء مصطفى ... فلم يدعهم يشعرون بمرارة اليتم أو صرامة العوز

دريني خشبة

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

جرذان الفنادق

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

حدث دكتور وطسن صديق شرلوك هولمز ومستشاره ، ومسجل أخباره قال :

عقيب اكتشاف جريمة روتشديل ، ومصرع سيروتينجهام في قصره ، سرى عن شرلوك هولمز قليلاً ، وأخذ ينام بانتظام ، ويتناول إفطاره وغداءه وعشاءه في ساعات معينة معلومة ، وقل إفراطه في شرب الشاى قبل الغروب . وكان يقول : « إنه عادة سكسونية ممقوتة » ولكنه أدمن الحقن بالمورفين إدمانا مزعجاً ، وكان يشق عليّ أن ألفت نظره إلى عواقبه الوخيمة ، فلما ضقت به ذرعاً وخشيت عليه لمحت إليه أن الأفيون ورث الحكة والصداع والأرق، والرؤى المزعجة

فضحك وقال : « ابق شفقتك لمرضاك الذين تعودهم » وتناول من على رف المكتب مجلداً ضخما وقرأ « الأفيون عكاز الطبيب ، يتناول الرجل بعد الأربعين منه قمحة انجليزية فيصح بصره ويحسن هضمه ، ويعتدل مزاجه ، ويرم عظمه وتصلب أعصابه ويزداد وزنه، على شريطة أن يواظب ويحافظ على مقدار الجرعة ولا ينقصها ولا يزيدها » ثم قلب الكتاب فرأيت اسم المؤلف وهو دكتور درجماستر أشهر مؤلفي الأفرباذين قاطبة ، وقال : ما قولك ، ألم أجاوز حدود الأربعين يا طبيبي ؟ فابتسمت ولزمت الصمت . فقال: نعم إنني أزيد أحياناً ، ولكن بنيتي تهضمه وتبتلعه، ولو علمت أن السر في نجاح موريارتي في إدمانه على هذا العقار اللوكي لعذرتني . آه يا عزيزي وطسن ، لو وفقتني العناية إلى القبض على عنقه متلبساً ، ذلك الأستاذ الأعظم !

الأستاذ الأعظم ! كان هذا هو اللقب الذي يطلقه على ذلك المجرم العالم الكبير ، الذي استخدم أحدث المخترعات في اقتراف جرائمه. وكان يلازمه التفكير فيه كل ما عرضت له قضية خطيرة ولكن البروفسور كان صعب المنال ، ولكن كان لا يقنط من الفوز في النهاية على خصمه الألد ، وكنت من جانبي أتوق توقاً شديداً لأري منظر الكفاح بين الاثنين لحماً ودماً وعقلا ، لا في الخيال كما كانت الحال منذ بضع سنين

في تلك اللحظة دخلت علينا مسز تيرنو مدبرة منزل هولمز تحمل الشاى وبيدها بطاقة وقالت إن صاحبها بالباب وهو قلق ويريد لقاء مستر هولمز في الحال . فتناول هولمز البطاقة وقرأ بصوت مرتفع :

رايبيج الفسفور

صاحب مصرف فانورف برمنجهام

ودخل علينا رجل أشعث أغبر أسود الشعر فاحمه ، ضيق الأجفان ، ضخم الجثة ، كأنه فيل صغير وحيا وانحنى في احترام عميق ، ثم جلس قبالة هولمز وقال :

— لقد عرفت اسمك من الصحف ، وضاعت حقيبتي منذ خمسة عشر يوماً في القطار ، من هاروتيش ولندن وفيها أوراق خاصة وثياب .

فسأله هولمز : ولم لم تقصد إلى سكوتلانديارد وفيه رجال فطاحل ؟ ألديك سبب يعوقك عن التقدم إلى الشرطة ؟

فقال واينبيج : كلا ! ليس لدى ما يعوقنى عما أشرت إليه ، غير أنى أنهم البوليس بالبلادة والغباء والغرور . إن المجتمع الحديث فى البلاد المتحضرة محكوم بالبوليس ، وواضع عنقه تحت قدميه . والبوليس فى كل قطر ووطن ضالة الشعب وسقط متاعه ومجموعة أو غاده . وقد انصرف إلى التسلط على الأمم والتحكم فى أقفية الأفراد والجماعات وهو كثير الشكوك والظنون ، واسع الحيلة ، ملآن بالدسائس ، عش زنابير ، وجحر أفاع ، ووكر حيات . فكيف ؟ فابتسم هولمز وقال : إذن هى مبادئك السامية التى تعوقك عن التماس المعونة على أيدى هؤلاء الذين تعتقد أنهم أوغاد . . . صدقنى أنك مخطىء يا هير هلسنجفورس خطأ شنيعاً . أنا لا أنقض قولك كله ، ولا أبرمه كله . وإن كان البوليس على ما وصفت من الدنايا ، فلم قبلت أن تعمل فى صفوفه فى مدينة هيدلبرج فى سنة ١٨٨٦ حتى وصلت إلى درجة بوزباشى ؟

فانتفض الرجل وامتقع ثم ملك أعصابه وقال :

— هذا صحيح . . ولكن كيف . . . كانت ظروف قاسية . ولكن كيف عرفت ذلك وأنت لم ترنى قبل اليوم ؟

فأشاح هولمز بيده وقال : هذا لا يهمك ، ولكن الذى يكربك ويكربنك هو فقدان حقيبتك وما احتوت من الوثائق الثمينة

فقال الرجل : أى نعم ، هـذا الذى يهمنى الآن . فقد ركبت الباخرة من هوك أوف هولاند فى منتصف الليل فى أول هذا الشهر ، ووصلت إلى شواطىء انجلترا غداة اليوم التالى والحقيبة بيدى ولم تفارقنى طرفة عين ، وسرت مع المسافرين إلى مبنى الجمارك ففتحت وأغلقت وأشر عليها الموظف المختص بحرف P رمزاً إلى السماح بالمرور ، وركبت القطار فى الدرجة الثانية ، وكان معى بضعة نفر من الطبقة الوسطى ، ولما وصلت إلى فندق فولكنر بشارع فولكنر ستريت فتحت حقيبتى وأنا لا أرتاب فيها فاذا هى غير الحقيبة التى كنت أحملها

فنظر إليه هولمز نظرة تهكم وتحديق وقال :

هذا أليم حقاً . حسن جداً يا هير واينبيج وأشكر لك ثقتك ، ومادمت تحب أن نحل لك هذه المعضلة فاكتم خبر زيارتك لنا

فقال الرجل : ولكننى الآن أصبحت معدماً ، لا أملك قوت يومى ولا أعرف ...

وقبل أن يتم كلامه أخرج هولمز من جيبه حزمة من الأوراق المالية وناولها إلى الهير ، فتردد الرجل وعاد إلى الوراء ولكن هولمز شجعه قائلا :

لا بأس عليك ، إنها قرض حسن ، فلا تحاول عد النقود وانصرف الآن بسلام وعد إلى غداً فى مثل هذه الساعة . فارتبك الرجل أيما ارتباك ، ولم يزد على أن قال :

— شكراً لك سأرد جميلك . وودع وانصرف .

وفى أقل من طرفة عين قال هولمز : على ياواطسن بثياب التنكر . سائح أمريكى وأنت سائح آخر . فتنكرنا وبدونا فى الزيين اللذين عينهما وخرجنا من باب خلفى وممنا حقائب جديدة وركبنا عربة إلى محطة

السكة الحديدية اللاصقة فى شارع بيكرلو وانتظرنا إلى موعد وصول أحد القطر وخرجنا مع المسافرين وأرشدنا الحوذي إلى الفندق المعهود . وأخذ كل منا غرفة بفراش فرد. وكانت الساعة السابعة عندما بدلنا ملابسنا واتخذنا سمتنا فى ثياب السهرة إلى ملعب جلوب ثياتر ، بعد أن تناولنا وجبة خفيفة فى مطعم پول مول . وكانت الفرقة تمثل رواية « نيران القدر » لذلك المؤلف الشهير ، وفى فترة الراحة التى تعقب الفصل الثانى همس هولمز فى أذنى قائلاً :

— إياك أن تدور برأسك أو تبدى حركة أو إشارة فان خلفنا بالدقة وعلى مقعدين مقابلين لمقعدينا شخصين يهمك أمرهما . وهما يتحدثان بالألمانية التى نجيدها معاً . وعند ما يبدأ التمثيل سوف يأخذان بأطراف الحديث الذى تركاه فى الفترة

فقلقت كثيراً وحاولت أن ألتفت بأى عذر كشراء نسخة من برنامج الحفلة وملخص القصة أو شراء برتقالة ، أو قالب من الشكولاته ؛ ولكن كان هولمز يراقبنى بدقة وينهانى بالغمز واللمز . فصبرت على مضض ، وقد فقدت رشدى فلم أتتبع حرفاً واحداً مما كان يلقيه الممثلون وسمعت الحديث الآتى

الرجل : إنه فندق مجهول من العامة مقصود من الخاصة . والذى يجعل العمل فيه سهلاً هيناً اتساع ممراته ، وتباعد غرفه ، وغفلة خدمه . فضلاً عن أن أضيافه يقضون أجفانهم فى الساعة العاشرة مساء ، لأنهم رجال أعمال ومال ومنهوكو القوى . وإن فى قربه من محطة السكة الحديدية ما ييسر كل أمر عسير . فالقادم من سفر طويل يستقرب الفندق المجاور ولا يفكر فى اختيار آخر بعيد

فقالت المرأة : أنا لا يمكننى أن أعمل من الليلة الأولى ولم أتعرف بعد مجاهل الفندق . لا بد من انقضاء أيام وليال ثلاث على الأقل ، حتى أعرف طريقى ... وإلا يحدث لى ما حدث فى دصلدورف

فقال الرجل : اطمئنى ما عليك من بأس . لا عيب فيك إلا ترددك . ولو لم أكن مثقلاً بدين ذلك الانجليزى اللعون شرلوك هولمز لنظرت فى تأجيل العمل حتى يتم تدريبك

قالت المرأة : إن ذلك الحادث اللعين الذى وقع فى فندق دصلدورف لا يزال يرعبنى فقد كان الرجل قوى العضلات وملكنى رغم أنفى وكاد ينال منى

الرجل : لا تذكرى هذا الحادث . إنك لاشك أحببته وإلا ما تركت ثيابك فى غرفته ، وخرجت من بين يديه كما خرجت حواء من الجنة

المرأة : ولكن أنت تعلم أن « ثياب الشغل » ناعمة الملمس ، سهلة الانزلاق ، ومن أصول الصنعة أن نتركها خيراً من أن يقبض علينا

الرجل : هذا معلوم ولكن ليس كل ضحايانا أقوياء وذوى شبق ، ولا كلهم ذوى سبات خفيف يطرد النوم من أجفانهم أقل صوت أو حركة

المرأة : والمورفين ... إننى لا أستطيع العمل بدونه ...

الرجل : إن السكينة الكبرى فى الحقيبة ولكننى أعددت لك الجرعة الكافية

كان شرلوك هولمز يضحك عند ما قلت له :

— ما أشد غبائى وأبله فطرتى . لقد سمعت صوت الرجل من قبل . ولما انتهى التمثيل رأيت الممثل

واينبيرج لابساً أفخر ثياب السهرة وعن يمينه فتاة ممشوقة القد ، ساحرة الجمال ، وعجاء العينين تسير كاحدى الملكات فى موكب التتويج

* * *

عدنا إلى الفندق فى نصف الليل ودخل كل منا غرفته . ورقدت فى فراشى ونمت كعادتى نوماً عميقاً وفجأة تيقظت على نور يبهر بصرى منبعثاً من بطارية كهربائية فنهضت فأشار إلى هولمز بأن ألزم الصمت التام . وكان أول همى أن أعرف من أين دخل وباب غرفتى لا يزال مغلقاً من الداخل وثقبه منسد بمفتاحه؟ فلما قادنى هولمز بيده رأيت باباً بين الغرفتين كان مغلقاً وفتحه هولمز بأحد المفاتيح من المجموعة التى يحملها للخير لا للشر

وقد راعنى أن رأيت فى غرفته جسما موثقاً

وقال لى : عليك الآن أن تساعدنى فى وضعها فى تلك الحقيبة الكبيرة

فقلت له : إن هذا الكائن يختنق

فقال : لقد أعددت لها فتحات فى جدران الحقيبة تتنفس منها

قلت : عنها ... من هى ؟

قال : عليك الآن أن تنقل الحقيبة وتخرج من باب الفندق متسللاً فلا تقع عليك عين أحد . وإن وقعت فانك المسافر الذى يقصد إلى الباخرة التى تبحر من تلبرى فى فجر غد

ولم يكن هناك بد من طاعة هولمز فانه لا يعرف المزاح فى هذه المواقف . وفى الحق كان الحمل جد خفيف فلم أشعر بأننى أنقل إنساناً . وأغرب من هذا أن الحمل لم يتحرك ولم يحاول أن يستغيث وأنا أعلم أن هولمز أشفق من أن يكمم إنسانا ، بله امرأة ناعمة . فلا بد أن تكون مخدرة ، أو راضية . لاريب فى أن هولمز كانت له قوة سحرية يخضع لها الناس من كل جنس ولون وطبقة. تخيل أيها القارئ طبيباً مثلى ينقل إنساناً فى حقيبة ... لقد تذكرت جان فالجان بطل البؤساء وهو يجوس خلال مجارى باريس يحمل جثة ، كما تخيلت فريجولى ذلك المهرج الايطالى الذى كان يخطف الناس ليضمهم فى حقيبة . ماذا أقول لو ألقى القبض علىّ وسئلت عن حملى « شكلا وموضوعا » ؟ ولكننى كنت أشعر بأن ظهرى كالحصن ، يحميه النفر الشديد القوى من الجند ، لمجرد التفكير أننى أعاون شرلوك هولمز ذلك العبقرى الذى لا يعمل إلا الخير

كان البواب نائما عند ما فتحت الباب الكبير فتنبه وقال : من هناك يعبر ؟

قلت : ساكن الغرفة رقم ١٧ إلى تلبرى لآخذ مكانى فى الباخرة التى تبحر فجراً وقد تركت لك الحلوان بالغرفة

فقال : سفر سعيد ياسيدى مع السلامة .

ووجدت مركبة بالباب كأنها تنتظرنى فقفزت فيها وأشرت إلى السائق أن يسير دون أن أعلم الاتجاه الذى أقصد إليه فأطل علىّ وقال: أين ياسيدى؟

قلت : شارع بيكر ستريت

فقال رقم ٤٠ ياسيدى حيث يقطن ذلك النمر الشهير شرلوك هولمز

قلت : هو كذلك . . ولكن من أين تعرف ؟

ولكن الحوذى كان أسرع من سؤالى فى إلهاب

ظهر الجواد بسوطه صائحاً بأسلوبه الشعبي[1] «جيها هاها!» وكان لوقع حوافر الحصان رنين على الأرض المرصوفة بالقار، وللعربة اهتزاز لذيذ أغرقاني في سبات عذب حنون . ولم أشعر إلا والحوذي ينزل ويحمل الحقيبة ويترك المركبة قائلا لى :

— صباح الخير ياوطسن، إنى أعفيك هذه المرة من أجر المشوار الذى قطعناه ، وسيأتى صاحب العربة لأخذها بعد بضع دقائق . فما كان أعظم دهشتى عند ما اكتشفت أن الحوذى الذى أمرته وتأمرت عليه ، لم يكن أحداً سوى شرلوك هولمز نفسه !! لقد كنت أزداد إعجابا به كل لحظة

بلغنا مسكننا في الساعة الرابعة والضباب يحكم الجو والفضاء ويسد الطرق فى أوجه الذاهب والقادم وصوت السكون يدوى فى آذاننا ، كأعظم ماتكون الجلبة والضوضاء والصخب

صعدنا وأيقظنا على الرغم منا مسز تيرنر مدبرة منزلنا ، فلما وقفت تفرك عينيها والحقيبة تحت أقدامها قال لهـا هولمز وهو لايزال بثياب الحوذى : عليك أن تعنى أعظم العناية بهذه الحقيبة الغالية فتدخليها الحمام وتطعميها وتمدى لها الشاى ثم تضعيها فى فراش دافئ وتجمليها قريرة العين ، طيبة النفس

فنظرت الكهلة إلى وغمزت بعينيها كأنها تقول: لقد فقد الرجل عقله إلى الأبد فوا أسفا ثم نطقت وقالت :

— كيف يمكن يا مستر هولمز أن تغتسل الحقيبة وأن تأكل وتشرب وتنام ؟ لقد ضاع عقلى فى معاشرتك . أو ضاع عقلك من طول التفكير أشفق بنفسك يا رجل ، الحمد لله على أن الدكتور كوبرزفيلد لا يسمعك[1]

فابتسم هولمز وقال : خذى حذرك يا مسز تيرنر فان كلامك هذا يعد قذفاً يعاقب عليه القانون وغمز بيده قفل الحقيبة فانفتحت وخرجت منها الفتاة فى ثياب التفضل كما تخرج الشمس عنـد المشرق أو تتفتح الزهرة عن أكمامها . فلما وقع عليها بصر مسز تيرنر صرخت صرخة مكتمة كما لو كانت عنزة تلد جدياً صغيراً بعد ولادة عسيرة . وقالت :

— تبا لكم ! تبا لكم ! لقد أفقدتمونى عقلى ! هذه هى الحقيبة . فتاة جميلة على قيد الحياة . آه إعذرانى أيها السيدان .

فضحك هولمز حتى كاديستاق وضحكت، وفتحت الفتاة عينيها ، وقالت :

— لقد أنقذتنى يا سيدى من يد ذلك الوحش الضاري .

وأفاقت مسز تيرنر من ذهولها وضحكت ، وقالت: لاتفتأ يا مستر هولمز تمزح ولا تقول حقـاً ، هيا بنا يا حقيبتى العزيزة ، إلى الحمام والمائدة . فان ظهورك بهذه الثياب لا يروق هـذا العالم المتزمت المحب للفضيلة .

وكان هولمز قد خلع ثيابه ولبس ثياب التفضل ووضع فى قدميه مباذله الطرية الناعمـة . وتناول شبقه الأيدى وقال لى وأنا أشرب فنجانة الشاى التى صنعتها بيدى :

— إن الرواية لم تتم فصـولا ياوطسن وما قمنا

(١) فى الأصـل Hackuly أى أسلوب سوقى خاص باهل لندن

(١) مدير مستشفى المجانين بلندن

بغير تمثيل الفصل الأول . والآن دعنى أغمض عينى طرفة عين .

تيقظنا فى تمام الساعة الثامنة على صوت مسز تيرنر وهى تقدم إلينا شابا هادئ الطبع فجلس وروى علينا قصته التى لخصتها فى أن اسمه بلوبيرد وكان هادىء الطبع فاضل الخلق ، وقد استقل القطار قاصداً إلى بلدة صغيرة ليشغل فيها وظيفة متواضعة وكان كل شىء يبدو لبلوبيرد عادياً ، لا خطر له .

وقد مرت سنو عمره دون أن تتخللها مغامرة أو يعتريها حادث يهز حياته ...

وعند ما بلغ القطار عند منتصف الليل المكان الذى يقصده بلوبيرد أخذ حقيبته من الديوان المكتظ الذى كان يجلس فيه مولياً وجهه شطر حياته الجديدة ، وصل بلوبيرد إلى الفندق الصغير الذى عزم على الاقامة فيه واسمه فندق فولكنر (يا لتهكم الأقدار !) وعند ما ذهب إلى سريره لينام نظر إلى الحقيبة وسرعان ما علته الدهشة ، فقد كانت تشبه ولا شك حقيبته ولكنها لم تكن هى بذاتها ، على أن بلوبيرد خشي أن يكون مخطئاً فى تقديره فحاول أن يفتحها بالمفتاح الذى لديه ، ولكن عبثاً حاول ، على أنه عند ما ضاعف جهده انفتحت فجأة ، وكانت أول نظرة ألقاها كافية لأن تثبت له أنه لم يكن مخطئاً . نعم كانت الحقيبة لشخص آخر ، أما حقيبته الأصلية وما فيها من سقط المتاع وهو كل ما يملكه فقد كانت فى ذلك الوقت تجوب الآفاق المجهولة حيث لا صاحب لها ، ووجد بلوبيرد نفسه وهو الذى لم يصادف فى حياته مشاكل صعبة يحتاج لحلها — عاجزاً منذ اللحظة الأولى عن أن يجمع فى ذهنه فكرتين أثناء ذهوله ودهشته . فشرع بلوبيرد يبحث أثناء تفتيشه فى الملابس المتسخة عما يدله على الشخص الذى أخذ حقيبته . وشعر تحت يديه برزمة من الأوراق ، فلما جذبها وجدها سلسلة من الخطابات والرسائل البرقية وأفلتت هذه الرزمة من يد بلوبيرد فانتشرت على أرض الغرفة رزمة من الأوراق المالية من كل نوع لم يعرف بلوبيرد من هذه الأوراق المتعددة الألوان إلا عدداً ضئيلا ؛ وجمعها واستمر فى البحث فاكتشف فى قاع الحقيبة المفروشة بالورق ما يشبه وسادة منتفخة من الأوراق المالية المختلفة . ونظر بلوبيرد حواليه وقد انتابه العجب والذهول منتظراً شخصاً يأتى إليه ليوقظه من ذلك الحلم اللذيذ المخيف . على أنه لم يأت أحد وبقيت الأوراق فى موضعها لم تختف . لم يكن بلوبيرد قد رأى مثل هذه الأوراق الغريبة المتعددة الألوان إلا عدداً ضئيلا . فأخذ يعدها وكان حبه للنظام يجعله يضع كل نوع من الأوراق على حدة دون أن يعرف بالضبط قيمة كل منه . على أنه بعد بضع دقائق عرف جيداً أن ما أمامه مقدراً بالعملة الذهبية يتراوح بين مليون ونصف ومليونين ، وكان يستطيع حينئذ أن يقول لنفسه إن محتويات حقيبته قد دفع لها ثمن أكثر من الثمن الذى تساويه ، على أن هذه الفكرة لم تخطر بباله . وكل ما كان يضايقه هو فكرة الاتصال بصاحب هذه الكنوز واستبدال كل من الحقيبتين بالأخرى . قال لنفسه لا بد أن أقرأ بعض هذه الخطابات فعرف من القراءة أشياء كثيرة لم يعرفها طول الثلاثة والعشرين عاماً التى قضاها فى هذا العالم ، أشياء لم تخطر له على بال . فاستطاع أن يدرك أن هذه الأوراق المالية هى

ملك أحد لصوص الفنادق ذوى النفوذ الواسع وكانت تصل إليه من شركائه ومن صديقة عزيزة كل أنواع المعلومات . وفهم بلوبيرد من آخر خطاب أرسلته صديقة ذلك اللص إليه أنه يريد أن يضع حداً لمغامراته ويلجأ إلى الراحة والعزلة ، وكانت الحلى قد بيعت بثمن ضخم . ولكنه فهم أن اللص يريد أن يتهرب من صديقته ليفوز بالغنيمة وحده أو يتعطف عليها بنصيب زهيد ، بعد أن قاست معه عنتاً شديدة وأخطاراً لا عدد لها أمكن التغلب عليها بمهارة وشجاعة ، وقد صارت مدمنة للمورفين حتى تستطيع العمل فى تلك المهنة الشاقة المخطرة

فقال له هولمز بعد أن وقف منه على هذه المعلومات الثمينة : قبل كل شىء كن واثقاً على الأقل أن صاحب الحقيبة سوف لا يأتى إليك ليستبدل حقيبته بالأخرى لأنه لا يحب أن يقبض عليه، ومن أكثر الأمور احتمالاً إذن أن يلوذ اللص هارباً ببدلة بلوبيرد وحذائه وملابسه . فهذه الحقيبة التى لديك تجعلك وشريكة لك مجهولة لدينا اللذين اخترقنا الجدران والأسطح وتسلحنا بالليل البهيم والمسدس فى قبضتكما لتدخلا الفنادق الفاخرة فتحطما صناديق الجواهر الموضوعة إلى جانب أصحابها السابحين فى نومهم

فقال بلو بيرد : والذى يزيد موقفى حرجاً أن صورة الفتاة التى عثرت عليها دلتنى على خطيبتى التى اختفت من بلدتى اختفاء غريباً منذ خمسة أعوام ولم نعد نراها ولا نعرف مقرها ولذا عزمت على ألا أخطب ولا أتزوج ما دمت حياً ، لعلها هى أيضاً تكون على قيد الحياة ومغلوبة على أمرها ، وهأنذا جئت إليك يا مستر هولمز لتنقذنى من هذا الموقف لأن المال المكتسب عن طريق غير شريف لا يأتي بفائدة

فضحك هولمز وقال لبلوبيرد عبارة لم أفهم مغزاها وهى : إنك سعيد يا بلو بيرد وقد أتتك السعادة كلها فى يوم واحد ودق الجرس فجاءت مسز تيرنر فقال لها : إن كانت الآنسة قد ارتاحت بما يكفيها فتفضلى بدعوتها إلينا

وعند ما دخلت علينا الآنسة المجهولة ووقع بصرها على بلو بيرد رفعت يديها إلى رأسها وقالت : آه يا رباه ! هل أنا فى حلم ؟ فقال لها هولمز : هذا خطيبك بلو بيرد جاء يسأل عنك . فتعانقا فى ذهول وانسحبنا لنترك لهما مجالا ليث لواعج الشوق

وكنت أنا فى حيرة وارتباك فقال لى هولمز : إن فى حيلة الدهر ما يغنى عن الحيل ، وعليك الآن يا وطسن أن تتعهد بعلاج الفتاة من عادة إدمان المخدر

وأكلنا جميعاً غداء هنيئاً إلى أن آن الموعد الذى ضربه هولمز للمر واينبيج هلسنجورس الذى لم يكن سوي صاحب الحقيبة ومسخر الفتاة ومعودها المورفين . فلما دخل قال له هولمز : أين ذهبت شريكتك ؟

فأخرج الرجل مسدساً ضخما وهجم على هولمز وكنت أسرع من البرق فى نزع سلاحه وتقييده بالحديد ، وأجلسناه كالوحش الضارى بلهث أينما توجه

فقال له هولمز : لقد كشف سرك، فاما أن نسلمك إلى البوليس ، وإما أن تغادر هذه البلاد آمناً ومتنازلا

باختيارك عن كل أموالك التي هي ثمرة سرقتك ، وهنا دخل بلوبيرد والفتاة . فلما استبان واينبيج حقيقة موقفه تنازل عن ماله للفتاة وخطيبها بمحض اختياره وقال بالألمانية :

« إن مشيئة علوية هي التي أرادت حرماني ثمرة هذه السرقة ورد هذه الأموال إلى تلك التي خاطرت بحياتها في الحصول عليها

وهأنذا قد أحسست دفعة واحدة باحساس جديد واكتشفت في قلبي راحة خفية كانت ولاشك نتيجة شعوري بالتوبة » فقال له هولز :

لقد تنازلت عن مطالبتك بالمال الذي أقرضتك إياه وهو يكفيك ويفيض إلى أن تعود إلى وطنك ألمانيا وتجد لك عملا مربحاً شريفاً . وفككنا عنه وأعدنا له سلاحه فهنأ شريكته السابقة وهي ضحيته وخطيبها وصحبه هولز إلى محطة السكة الحديدية وما زال يشير له بيده حتى غاب قطاره عن الأنظار . وعاد هولز يقول لي : إن المال صار الآن حلالا ومشروعاً لأن أصحابه الأصليين مجهولون ووضع اليد في المنقول يفيد الملك . وقد دفع اللص السابق ثمن توبته إلى الفتاة ، وأراد الله أن يجمع شملها بخطيبها؛ وأظن أحدنا لن يذيع سر هذه المأساة التي انقلبت زفافاً ، وخصوصاً الآنسة وصديقها الذي عثر على الحقيبة

وبعد أشهر كان بلوبيرد وزوجته يسكنان قصراً على شاطئ البحر بجوار بريطون ، وكانا يرتديان أفخر الملابس وآنقها وكان هولز يقول لي :

— إن سيادتي هي في إقرار العدل ورؤية السعادة تتم للآخرين

محمد لطفي جمعة

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن نازلي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

روض الفرج

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

اعتدل الأسطى شلبي فى جلسته وجعل يفتل شاربيه الغزيرين ويرفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشاب الجالس إلى يمينه على الكنبة :

— وما الداعى إلى التعجيل بالسفر ؟

فقال له صاحبه وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره تدل قوة بنيته الطبيعية وسذاجة نظرته على ريفيته الفجة :

— وما الداعى إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحانى ؟

فقال الأسطى شلبي بتفلسف :

— وهل الغاية من الدنيا تنتهى بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانوية ؟ ينبغى أن تروح عن نفسك قليلا فما العريش التى أنت ذاهب إليها إلا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للهو والمرح ... فقال الشاب :

— أخشى أن يقلق والدى لتأخرى

— وماذا يضيره لو تأخرت يوماً آخر وقد غبتَ عنه عاماً مدرسيًّا كاملاً ؟ تعال نذهب معاً هذا المساء إلى روض الفرج والمشاق لمشاهدة تمثيل رواية « اشمعنى » وهى كوميديا غاية فى الإضحاك والبهجة ... ما رأيك ؟

وضحك الأسطى شلبي وهو ينظر إلى عبد المعز باغراء فابتسم الشاب وقال بتسليم :

— فليكن ... سأؤجل السفر إلى غد

فابتسم الأسطى مسروراً وقال له بخيلاء :

— نعم ارأي ، وستري بعد قليل عشيقتى تقوم بتمثيل الدور الأول فى رواية « اشمعنى ». وارتدى عبد المعز ثيابه وكانت تبدو عليه هيئة الطلبة الريفيين الذين يندر أن تنسجم (البدلة) مع قامتهم ويبدو الطربوش غريباً على رؤوسهم . أما الأوسطى فقد وقف أمام المرآة فى دل وتيه وارتدى قفطانه الزاهى وجبته البنى الأنيقة ، وأمال الطربوش حتى مس حاجبه الأيمن وأمسك بعصاه الذهبية اليد ، وتقدم قريبه يختال فى مشيته كالطاووس

والأسطى شلبي هذا بدأ حياته كصبي حلاق بسيط ثم استقل بصالون جميل أتاه منه رزقه رغداً، ثم اشتغل بالسمسرة وصادفه فيها توفيق كبير فتمت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته المديدات من نجوم روض الفرج

أما عبد المعز فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبي المدعو الشيخ طه شيخ كتاب وواعظ بالعريش ؛ وقد جاء فتح مدرسة العريش الابتدائية متأخراً مما دعا ولاة الأمور إلى التجاوز عن شروط سن القبول فالتحق بها عبد المعز وهو ابن ثلاثة عشر عاماً، وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائى أرسله أبوه إلى قريبه شلبي ليتم تعليمه الثانوى ، مؤثراً بعد القاهرة مع الاطمئنان عليه فى بيت قريبه على قرب الزقازيق مع إقامته وحده

على أن الأسطى شلبى لم يكن عند حسن ظن الشيخ طه فكان يدعو أحياناً عبد المعز إلى المقهى واقترح عليه مرة أن يعلمه النرد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ . وكان الشاب حكيما مجتهداً فلم يستسلم لاغراء قريبه ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يسلمه فيها زمامه فذهب معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو البسفور لمشاهدة رواية « اشمعنى » وبدا الشاب بطيئاً فى فهم النكت و(القفشات) وأخذ يقلب عينيه بين الضاحكين فى استغراب وحيرة ، ولكن جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل ، وكانت امرأة فارعة طولا وعرضاً مزججة الحاجبين مكحلة العينين محمرة الخدين والشفتين ، تنوء بحمل ردفين ثقيلين لا ريب يرهقانها ثقلا ، بل ما أحراهما أن يميدا بها لولا أن وازنتهما العناية بثديين كبطيختين وإن كانا — بقدرة قادر — ناهضين ، وكانت تنثنى وتتمايل وتتخنث فى كلامها وتتكسر وكأنها تتأوه وتتوجع والنظارة لا يكفون عن إبداء الاعجاب ويرقونها من أعين الحساد ، وفتل الأسطى شلبى شاربيه بقوة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلا :

— هذه عشيقتى الآنسة نور الحياة .. أنظر !

وكان عبد المعز ينظر بعينين جشعتين فزاد ذلك من مسرة الرجل فعاد يقول :

— إن بعض الظرفاء ممن يعرفون أنى المالك لقلب هذه المرأة يقولون لى : « حقاً إنك لمن كبار ذوى الأملاك »

وقهقه الرجل ضاحكا تياهاً فخوراً

وفى أثناء فترة الاستراحة رأى عبد المعز الممثلة الحسناء آتية صوب الركن المنعزل الذى يجلسان فيه ، تتبختر كأنها ترقص ، وتوزع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة ؛ ثم رآها تسلم على الأوسطى شلبى وتقول له ضاحكة :

— كيف حالك يا رجل ؟

وسمع قريبه يجيبها قائلا :

— وما جدوى سؤالك عن حالى ما دمت تلتهمين مالى وصحتى بلا رأفة ؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأساً من الويسكى ، وكبر على عبد المعز أنها لم تباله ؛ ورأت المرأة ارتباكه ، فمدت يدها المكتنزة وقرصته فى خده وهى تقول :

— وكيف حالك يا نونو ؟

فاحمر وجه عبد المعز استحياء ، وأحس باستياء وشغل بشعوره عما حوله فلم ينتبه إلى ما دار بين المرأة وقريبه ، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها الممتلئ فأحس نحوها بانجذاب عجيب ، والظاهر أن المرأة لم تهمله لأنها عادت تداعبه فسألته :

— كم عشقت من النساء يا غلام ؟

وكان عبد المعز يشعر بميل إلى التحدث إليها فأغضى عن سخريتها وسألها بدوره :

— وهل يهمك أن تعرفى ذلك ؟

— كيف لا ؟

— وله ؟

— لأسباب كثيرة أقلها أن أعرف عمرك

— وما علاقة العمر بالعشق ؟

فغمزت بعينها وقالت :

— نحن معشر أهل الهوى نقدر الأعمار بحساب الحب ، مثلنا مثل العرافة التى تهتدى إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم ...

فضحك الأسطى شلبي وقال :

— إذا فعبد المعز لم يولد بعد على تقديرك

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بانكسار :

— رباه... ولم تحرم نفسك من الحب يابني ؟... ألا ترى الأسطى شلبي لا يفبق من الهوى وإن رد إلى أرذل العمر ؟

فتغاضب شلبي وقال محتجا :

— أيقال عني أنا مثل هذا الكلام (وفتل شاربيه واستمر قائلا) أهذا شارب رجل رد إلى أرذل العمر؟

فعبثت أناملها المخضبة بالحناء بشاربه وقالت :

— أقسم أنك سرقت هذا الشارب من زبون شارد الفكر !

ولم يكن لدى الممثلة متسع من الوقت لتسترسل في مداعباتها ، فشربت كأسها وحيت الأسطى وقرصت عبد المعز مرة أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة

واختتم التمثيل عند منتصف الليل ، وانتظر الأسطى شلبي السيدة نور الحياة حتى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه وركب ثلاثتهم تاكسي انطلق بهم صوب المدينة . وفي أثناء الطريق كان عبد المعز يختلس من الوجه المتلىء الجميل نظرات جائعة ، وكانت المرأة تراقبه بعينين نصف مفتوحتين لا تخفى عليها خافيته ، وقد وجدت لذة غريبة في مشاهدة قلقه وتحيره ، وأرادت أن تنفي عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها ، وأخيرا أحست نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه. وبلغ التاكسي ميدان المحطة فأمر الأسطى السائق بالتوقف ربثما يودعهما عبد المعز الذي قدر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة ، وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت: «ياعيني .. أتعود إلى البيت وحدك ... خذ هذه القبلة لتؤنس وحشتك »

ومالت نحوه بسرعة وقبلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب

ووقف الشاب ينظر إلى التاكسي الذي ابتعد بهما في جوف الليل إلى حيث لا يعلم ، وكان ذاهلا محموماً يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزئبق في الترمومتر، ويحس بالقبلة على شفتيه ويدوي رنينها في أذنيه ويشم رائحة الفم المعطر بالقرنفل ، واهتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة في حياته فجعلت تخلق له الأحلام وتدنى إليه الأماني، وأنامت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروى اشتهاءه بفنون الحب جميعا

ولدى ضحى اليوم الثاني رجع الأسطى شلبي إلى بيته وقد أدهشه أن يرى عبد المعز ما يزال قابعاً به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين فقال له :

— ظننت أنك سافرت إلى العريش

فسأله الشاب بقلق :

— أيضايقك أن أبقى مدة أخرى ؟

— كلا وألف مرة كلا .. على الرحب والسعة دائما ... ولكن قل لي بالله ما الذي حملك على تغيير رأيك ؟

فقال الشاب مبتسماً مرتبكا وهو ينظر بعينيه إلى الأرض :

— روض الفرج دون غيره ! ليتني أستطيع أن أشبع من ملاهيه !

وقال الأسطى شلبي لنفسه : ترى هو روض الفرج حقاً أم نور الحياة ، على أنه لم يبال هيامه واعتقد أنه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية فاصطحبه معه إلى روض الفرج. وكان تعلق الغلام

بنور الحياة بيّناً لا يحتاج إلى دليل؛ أما الذى لم يدر بخلد إنسان أبداً ولا كان محل احتمال قط فهو أن تتعلق المرأة بالغلام، ولو أنه من المسلم به دائماً أن عالم الحب عالم حافل بالمفاجآت غنى بالغرائب والعجائب

وكانت الظواهر تجمع على حب تلك المرأة الهائلة لذاك الغلام الغرير فكانت تأنس به وتخف إلى محضره وتماطيه نظرات حنان وعطف ومودة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارة فى الانفراد به ، وكانا يطلبان غفلة من الأسطى شلبى ليتناجيا بغمزة عين أو ينفسا عن صدريهما بلمسة يد، وفى أثناء ذلك لا تكف ركبته عن تحسس فخذها المكتنز . .

وحاول الأسطى شلبى أن يهزأ به فى حضرتها أكثر من مرة فكانت تغضب وتنتهره حتى ضاق صدره وجعل يفتل شاربيه بعنف ويقول لنفسه بغيظ « أيغلب هذا الشارب الذى يقف عليه الصقر؟ هيهات ثم هيهات ... »

وفى أثناء ذلك استبطأ الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطاباً يحثه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبية فنصح الشاب باطاعة والده ولكنه أجاب — أو قلبه أجاب — « لا أستطيع » . وانفجر حقد الأسطى شلبى فى كتاب حرره للشيخ طه كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الحضيض والفساد وصارحه بهيامه بإحدى بغايا روض الفرج ، وأهاب به أن يدركه أو يتردى فى الهاوية إلى الأبد

وجن جنون الشيخ الواعظ فشد رحاله إلى القاهرة فبلغها عصراً ، واستقبله الأسطى شلبى استقبالا دل على الاخلاص والمحبة، ولم يتردد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس فى صدره بما يزيد مخاوفه ويهيج بلابله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور وكان الستار مرفوعاً فسار به إلى مكان يطلعان منه على الركن الأيمن الذى يجلس به عبد المعز يشاهد التمثيل فى الظاهر وينتظر نور الحياة فى الحقيقة، ومال الأسطى على أذن الشيخ وقال هامساً :

— ستوافيه إلى هذه المائدة بعد قليل

فضرب الرجل حجره بيده فى حالة عصبية وقال بتأثر :

— ألا يكفيه أن يغشى هذه البؤرة الفاسدة ؟

فقال الأوسطى شلبى بلهجة دلت على الحزن والأسف :

— إن ما ينفطر له القلب حقاً أن عبد المعز كان شاباً عفاً طاهر الخلق

— فتنهد الرجل بحسرة وقال كالدهش

— ولكن من أين له المال الذى ينفقه على ممثلة؟

— أظن أن العلاقة بينهما لم تجاوز خطى التعارف الأولى ولهذا أهبت بك أن تدركه ولما يهوى

— فقال الشيخ بلوم وحزن :

— لقد سكت عنه ياشيخ شلبى أكثر مما ينبغى . كان يجب أن تحذرنى من بادىء الأمر ...

— فقال الأسطى بيقين :

— أقسم بالله إنى ما علمت بسقطته حتى بادرت إلى الكتابة إليك ...

— وعند ذاك نزل الستار فوجه الرجلان انتباههما إلى الشاب المولهما ظهره، وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه فى مشية الأوزة المصرية وتجلس قبالته ، ونظر الأسطى شلبى إلى الشيخ طه فرآه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف

— يارحمة الله ! ورآه يقف مرتعش الأوصال زائغ البصر، فأشفق من عاقبة النهور وقال له بتوسل:

— هدىء روعك ياشيخ طه

ولكن الشيخ طه لم يستطع أن يهدىء روعه وسار كالمترنح حتى وقف خلف ابنه الذى لايحس به وألقى على المثلة نظرات وحش مفترس وألفت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التى تدخرها للمتطفلين، ولكنها علقت بوجهه ولم تبرح، وعبثا حاولت أن تحول عينيها عنه كالمستهوى، وعجب الأسطى شلبي لما رآها تتلبسها حالة دهشة وفزع كتلك التى تلبست الشيخ طه حين وقوع نظره عليها فحار لأمرها وقال لنفسه بقلق « ليست هذه مسألة عبد المعز »

وفى تلك الأثناء التفت عبد المعز إلى الوراء فوقعت عيناه على أبيه فجمد مكانه كالصنم ولكن أباه لم يباله كما توقع واكتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها فى يد شلبي وقال بشدة لا تحتمل مراجعة: اسبقاني إلى البيت .

— فمضى الأسطى شلبي مع الشاب المرتعب وهو يتمتم : «خلصنا من الابن طلع لنا الأب»

— ولما خلا الجو للشيخ والمثلة قال الرجل باحتقار:

— السلام عليك أيتها الفاجرة التى ما كنت أظن أن الله سيبتليني برؤيتها مرة أخرى

— ولم ترد عليه المرأة الماثلة بل استكانت وبدا عليها الذهول والقلق وتعلق عقلها بالشاب الذى ذهب فعاد الرجل يقول بنفس اللهجة :

— حقا هذه هي البؤرة التى أعدت لأمثالك. لقد كنت يوما ريفية بسيطة ولكن نفسك كانت ملوثة تبرأ منها النفوس الريفيات جميعا . كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتوم أن ينتهى بك المطاف إلى روض الفرج أو إلى هاوية أشد وعورة . أيتها الفاجرة

وكانت نور الحياة تفكر فى أمور أخرى ألهتها عن الاصغاء إليه فسألته بخوف وإشفاق وهى تشير إلى الناحية التى ذهب إليها الأسطى شلبي وعبد المعز:

— هل هو ... ؟

— ولم تقو على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشية :

— نعم ... نعم ... هو ابنى ... بل هو الطفل الذى تركته فى القماط وفررت مع ذلك القصاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجية ... هو ابنك أيتها الفاجرة فقولى ماذا صنعت به ؟ ...

وابيض وجه المرأة وعلاه الكركم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة :

— هل وقعت الجريمة النكراء ؟ هل حدث الاثم الأكبر ؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب ؟ والله ما كنت أحب أن يشارك ابنى فى مثل هذه الفعلة الشنعاء ولكنه الانتقام الالهى الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك الذلة والهوان إلى أبد الآبدين

وكانت المرأة فى حالة ذهول شديد حجب عن حواسها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه فغلبت هواجس ضميرها صوت الرجل المرفى المزيد وجعلت تحدث نفسها

— إبنى ... رباه ... أهذا إذاً سر حبي له وعطفى عليه ؟... إبنى ... لكأنه حلم بعيد التحقيق

فقال الرجل الغاضب :

— فلتموتى كمداً جزاء إثمك الشنيع

فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار وقالت :

— كفى هذيانا ... فانه لم يقع بينى وبين ابنى

ما يخجل منه أحدنا أو كلانا

فاشتد غضب الرجل لهجتها وصاح بصوت انفجاري :

— إياك وأن تقولي ابنك ... لقد ماتت أمه حين ولادته ... أفاهمة أنت ؟

ودوى صوته فالتفت النظارة إلى ناحيتهما من كل صوب، وكادت تفقد الممثلة صوابها، ولم تر بداً من الانسحاب السريع ، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت قريبه الأوسطى شلبي ولم يطمئن به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطة مصر وفي أثناء الطريق قال له:

— لن ترى القاهرة مرة أخرى إن شاء الله .. وسأحولك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان

وصمت عبد المعز فلم تنفرج شفتاه عن كلمة وظل جامداً كالتمثال حتى آوى إلى حجرته وكان في قرارة نفسه غاضباً على أبيه ولعله لو رأي الشيخ وهو يختم صلاته ذاك المساء فيبسط يديه ويدعو ويتوسل ويذرف الدموع الساخنة لربما سكت عنه الغضب وأجبرته حناياه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ولكنه كان لا يرى من الدنيا جميعاً سوى وجه ممتلىء مستدير حلو الابتسامة جم المحبة والحنان يراه في النور وفي الظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح مخيلته ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان ، ولم يفكر قط في النسيان أو التعزي ولكنه كان يبتغي الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة مهما كلفه الأمر

ولاحت له الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطر أبوه إلى سفر يقتضيه التغيب بضعة أيام ، ولم يدع الفرصة تفلت لأنه كان عازماً عزماً أكيداً أمات ضميره وهزم نوازع الخير في نفسه ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر — كما قدر — على خمسة جنيهات دسها في جيبه وفر من البيت ...

وبلغ القاهرة ظهراً، وكان مضطرباً متعباً فاستراح في مقهى حتى العصر ، ثم ركب إلى روض الفرج فالى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود ، ولكنه لمح عن بعد الأسطى شلبي جالساً إلى المائدة في اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة لا شك بعد أن خلا له الجو ، فغلى الدم في عروقه وود لو يخسف به الأرض، وحار لحظة قصيرة ثم لم يتردد، فقصد رأساً إلى حجرات الممثلات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتى يؤذن له فاقتحم بابها

وكانت مفاجأة غير متوقعة ، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات المكياج والتواليت تسقط من يديها، وتبدى على أسارير وجهها فرح قهري وكادت تفتح له ذراعيها وتضمه إلى صدرها الخفاق وتماطيه قبل الحنان والأمومة ، ولكنها تنبهت إلى نفسها فتصابت في وقفتها وجمدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول ، ولم يكن لديها متسع للتفكير والتقدير ، ولكنها أحست بأن الطريق الذي تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذي ينبغي لها سلوكه

ولم ترد عيناه أن ترى في وجهها سوى الفرح الذي كساه لأول وهلة ، فأقبل عليها مفتوح الذراعين ولكنها أغضت عنه وسألته بلهجة غريبة :

— عبد المعز ... ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغيرها إشفاقاً :

— أنت تعلمين بما أني بي فكيف تتجاهلينه ؟

ونفذت لهجته التوسلية إلى سويداء قلبها فخفق بشدة وكاد يطير من بين يديها ، ولكنها ضغطت عليه بقسوة لم تعهدها في نفسها من قبل وسكتت هنيهة

لتضبط عواطفها كيلا يظهر اضطراب وجدانها فى نبرات صوتها ثم قالت :

— لا أفقه لما تقول معنى

— فتنهد الشاب بحرقة وترك ذراعيه يسقطان إلى جانبه وقال :

— أتيت لأنى لا أحتمل البعد عنك وليس بى من قوة أستطيع بها التصبر أو التعزى ، فعبثاً حاولت أن أقيم لرجاء والدي وزناً ، وعبثاً حاولت أن أصرف نفسى عن التفكير فيك ، وانتهزت فرصة سفر والدى لألوذ بالفرار ، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروفى غاية فى القسوة فأخذت نقود أبي ...

وأسكتته عن إتمام حديثه صرخة فرت من فم المرأة الخائفة المشفقة ، وسمعها تسأله بألم :

— هل سرقت ؟

— فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها وقال بتأثر شديد :

— نعم سرقت ولست آسفا على ما فعلت لأنه كان سبيلى الوحيد إليك وان أتردد عن أى تضحية فى سبيل أن أحظى بقربك ؛ وهاهى ذى نقودى فافعلى بها ما تشائين ...

— ولكنها أشارت إليه بيدها فأسكتته وسألته بجفاء يعلم الله كم كلفها من جهد وعذاب :

— هل يعود أبوك سريعاً من سفره ؟

— بعد يومين أو ثلاثة

— فتنهدت المرأة ارتياحا وقالت :

— ينبغى أن ترجع فى الحال إلى بلدك لترد النقود إلى مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك .

ولكنه قال بجزع وخوف :

— هذا مستحيل . أنا لا أستطيع مفارقتك أبداً

— هذا كلام فارغ وعبث طائش والحب سريع الزوال ، أما أثر الجريمة فلا يزول

فقال باصرار :

— لن أفارقك أبداً

وخشيت إن هى لانت له وطاوعت قلبها أن تقضى عليه فقالت بصرامة :

— ينبغى يا هذا أن تذهب سريعاً وإلا وجهت إلى تهمة تحريضك على السرقة

فبغت الشاب وأحس بخيبة مريرة وسألها :

— أهذا كل ما يهمك من أمر عودتى ؟

— طبعاً ...

— أتجدين فى القول ؟

— وهل هذا وقت هزل ؟

— وفيم كانت مودتك لى ؟

— وأى مودة هذه التى تهون على النفس ما تهددنى به جريمتك ؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

— ولكنى ارتكبت هذه الجريمة من أجلك أنت !

— لقد جئت أمراً نكراً ، وإن عشاق الكثيرين ليترددون إلى بغير ارتكاب الجرائم

فتنهد عبد المعز تنهد اليائس المغيظ وقال :

— وإذا كنت تكذبين ؟

فقالت وكانت فى حالة من الاعياء شديدة

— أنت الذى أخطأت فهمي ... نعم إنى لا أنكر أنى ذكرت فى حديثى معك الحب ولكنه كان حباً بريئاً كحب ... أمك مثلا

وكان دم عبد المعز يغلى فى عروقه غلياناً وكان الغضب يفور فى قلبه وينفث أمام عينه سحائب من دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات :

— لا تشبهى نفسك الآثمة بأمى الطاهرة فتفاق رقدتها الآمنة أيتها العاهرة ...

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها — فى غيبوبة الغضب — وبصق عليها ...

ثم ولى الأدبار فلم يقدر له أن يرى بشاعة الألم الذى قاص أسارير هاروالا الحزن الذى طفر بالشيخوخة على وجهها ولا رآها وهى تمسح بصفته بيدها ودمعها ينهمل ...

ومضى فى طريقه لا يلوى على شئ هائجا، ثائرا كالزوبعة ، وركب الترام ونزل منه واستقل القطار وهو يحدث نفسه ويتهدد ويتوعد ويتجرع غصص الندم والأسف

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أثر الجريمة بيديه ونجا من شر عظيم

وقد ظن أن الدرس القاسى الذى تعلمه كفيل بأن يجتث من نفسه كل ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعا ، ولكنه حين عاودته طمأنينته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج ، وقد غالط نفسه وقاوم نزوعه ولكنه وجد عقله مجبرا على التفكير والتذكر، فساءل نفسه ماذا فعلت نور الحياة مما استحق غضبى ؟ ألأنها توددت إلى؟ فهذه صناعتها وفنها ، أم لأنها أشفقت على نفسها من عواقب جريمتى ؟ فهذا ما ينتظر من أى إنسان مهما كان أدبه وكان تهذيبه ، وربما كان من الطبيعى أن أغضب بعد أن منيت بالخيبة وذهبت تضحيتى هباء، ولكن لم يكن طبيعياً قط أن أصب عليها جام غضبى، وماذا فعلت هى تلقاء ذلك؟ لاشئ ، لقد لطمتها وبصقت عليها فماذا فعلت وهى القادرة على «البهدلة»؟ لاشئ !

ومضت الأيام تلو الأيام وانتظر على رجاء أن يمحو الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة. وكان يجد فى أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قط وطالما غالط نفسه فيها ولكن ربما غلبته على أمره أحيانا فيتنهد حزنا ويقول لنفسه آسفا محسوراً « ليتنى لم أمدد لها يدى بسوء »

نجيب محفوظ

شركة مصر للملاحة البحرية

تمهد لكم السبيل إلى بيت الله الحرام

بباخرتيها الفاخرتين

زمزم و روض الفرج

وفنادقها فى

السويس — جدة — مكة المكرمة

وبنك مصر يقدم لكم جميع الخدمات ويستبدل العملة ويحاسب المطوفين ويدفع الرسوم والمصاريف

استعلموا من

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها بنك مصر وفروعه شركة مصر للسياحة وفروعها

أحية أم ميتة ؟

لشاعر الهند وفيلسوفها طاغور

بقلم الأديب خيري شهاب السعدي

— ١ —

لم يكن « لكادامبيني » قريب من آل أبيها تعسها رحمه ، ولا نسيب من عشيرة زوجها تعتمده أو تعول عليه ، فقد أدرك أولئك الموت جميعاً حتى لم يبق على أحد غير طفل صغير لحمها « سارادا سنكار » أمير مقاطعة « راينهات » خلطته بنفسها ، ووطأت له مهاد رأفتها منذ أن مرضت أمه بعد الوضع فكفلته هي وعنيت بأموره ؛ والمرأة إذا ما احتضنت طفلاً لغيرها محضته خالص حبها الذى ما فوقه شيء ، ذلك بأنها ليس لها عليه حق من حقوق القربى أو النسب غير حق « المحبة الخالصة » ... والمحبة هذه لا تستطيع أن تثبت حقوقها بالصك والوثيقة التى تواضع « الاجتماع » عليها ، بل هي لا تريد أن يكون إثباتها بهذا . وإنما تريد أن تثبت بالعاطفة القوية ، وتعبد بالحنو المضاعف من عند أمثال هذه من النساء [1] .. وكذلك كان حب هذه المرأة الخائب قوياً مضاعفاً لذلك الطفل الصغير ...

وفى ليلة من ليالى « سرابان [2] » — والعالم ماض على نهجه المعهود — توقف قلب « كادامبيني » فى صدرها الصغير المدنف بالحب والآلام عن الخفوق وسكت سكتة الأبدية الطويلة ، إذ توفيت المسكينة « بسكتة القلب » ليلتئذ على حين غرة . . .

وحمل الجثمان أربعة من الرجال سراً إلى حيث يحرقونه بغير أن يجروا له شعائر الاحراق المعروفة حتى لا يؤخرهم رجال الشرط عما يريدون.. ومضوا به إلى حيث يحرق أهل تلك القاطعة موتاهم ، وهى بقعة فى فسيح من الأرض لم يكن فيها غير كوخ صغير إلى جانبه حوض للماء وشجرة باسقة من أشجار « البانيان » وكانت ترى إلى ذلك آثار نهر قديم كان يجرى فى تلك الأرض من زمن بعيد ، ويظن الناس أن ماء الحوض ذاك قد أجرى إليه من هذا النهر القديم فهم لذلك يقدسونه ويتبركون به .

وأدخل الرجال الجثة فى الكوخ ومضى « كارجان » و « نيتائى » يلمسان حطباً للاحراق وبقى الآخران فى الكوخ يحرسان الجثة

وقد كانت ليلة حالكة شملت بظلامها كل شيء، وحجب سحابها المتراكم الكثيف النجوم فى السماء .. جلس الاثنان صامتين فى الكوخ ، وقد خبا المصباح ولم تجد المحاولات فى إيقاده نفعاً إذ كانت علب الكبريت رطبة لا حيلة فى الاستفادة منها . وبعد سكون دام طويلاً ، قال أحدهما :

— ما أشد حاجتنا الآن يا أخى إلى غليون من التبغ ! لقد أنستنا السرعة أن نجىء بشيء من ذلك فأجابه الآخر : إن فى استطاعتى أن أركض

(*) من كتاب « من روائع طاغور » الذى يصدر قريبا

(١) اللائى ينظرن إلى الطفل نظرتين : نظرة الأم المرء وم ونظرة المرأة الحانية باعتبارها إنسانا رقيق القلب

(٢) شهر من الشهور الهندية كان مثبتا فى النص الانكليزى ؛ والظاهر أنه من شهور الصيف التى تهب فيها الرياح الموسمية من ناحية الجنوب الغربى محملة بالأمطار الغزيرة كما سيمر بالقارىء

إلى القرية فأجئ بما نحتاج ...

وفهم « بِدْهو » سبب رغبة صاحبه « بناماتى » فى الذهاب[1] فأجابه قائلا :

— ويخيل إلى أنى سأظل وحدى فى غضون ذلك !

ثم انقطع الحوار ، وشمل السكون تارة أخرى ، فكان الوقت يمضى فى بطء شديد حتى لكأن الدقائق الخمس تعدل ساعة كاملة ؛ وكان كل من الرجلين يلعن صاحبيه اللذين ذهبا بحجة الحطب ، ويرتاب فى أنهما ذهبا لذلك . من يدرى فلعلهما يتداولان الحديث فى موضوعات شتى فى مخبئهما الأمين

ولم يكن يسمع فى ذلك السكون غير صرير الحشرات أو نقيق الضفادع التى بقرب الحوض .. وفجأة خيل للرجلين أن الفراش قد تحرك قليلا كما لو كان البدن الذى فيه قد استدار من جنب إلى جنب . . . فارتجف كل من الرجلين فرقاً واستعاذ بالله مما يرى !

وفى اللحظة التى انطلق فيها هذان الحارسان من الكوخ متجهين إلى القرية كانت ترتفع فى جو الغرفة شهقة عميقة ! وبعد أن ركض الرجلان نحو ثلاثة أميال وافاها الاثنان الآخران ، وما كان هذان ليعنيهما أمر الحطب ، بل كانا فى الواقع قد ذهبا لإزجاء الوقت بالتدخين والكلام ، حتى إذا ما عادا زعما أن قطع إحدى الأشجار قد تم وأنه لم يبق إلا أن تشق الشجرة لتحمل بعد قليل ... ولكن « بِدهو » وصاحبه قصّا عليهما ما رأيا من أمر الميتة ، فسخر هذان منهما وشتاهما على أن تركا واجبهما المكلفين به !

ورجع الرجال الأربعة من فورهم إلى الكوخ ولكنهم إذ دخلوه لم يجدوا فيه غير الفراش خالياً من الجسد ! فاستولت عليهم الدهشة وحملق بعضهم فى وجوه بعض . . . أفى الممكن أن يكون قد أخذ الجثة ابن آوى ؟ ولكن أين مزق الثياب الباقية ؟ وبخروجهم من الكوخ رأوا على الطين عند باب الكوخ آثاراً صغيرة انطبعت عليه من أقدام امرأة سارت من قريب على ذلك الطين

... ولم يكن « ساراداسنكار » بالغبى ولا المجنون ليصدق هذه القصة الخيالية التى سيقصون عليه ، ولذلك عزموا — بعد تداول الرأى بينهم — على أن يعللوا لقومهم أنهم أحرقوا الجسد ...

وعند ما انشق عمود الفجر ، وجئ بالحطب ، زعم الأربعة الحارسون للقوم أنهم أتموا الاحراق — نظراً لتأخرهم — بحطب غير هذا احتطبوه ! وإذ لم تكن لجسد الميتة قيمة فيسرق ، فقد أهمل الجميع السؤال عن كل ما يتعلق به ...

— ٢ —

ليس يجهل أحد أن الحياة قد تكون موجودة فى جسم من الأجسام فى حين أنه لا علامة لها فى ذلك الجسم ، وأنها ربما عادت فظهرت علائمها فى ذلك الجسم الذى قد بدا عليه الموت . . . وكذلك كان شأن « كاداميبنى » فهى لم تمت بل توقفت أجهزة جسمها لسبب مباغت مجهول . . . ولما أفاقت أدارت الطرف فيما حولها فلم تر غير ظلم ضاربة أطنابها فى كل مكان ! وفى لحظة خاطفة طمس على ذاكرة « كاداميبنى » وشعورها ، فاذا هى لا تعى شيئاً مما حولها حتى لكأن هذا الوجود كتاب

(١) وهو ما خيل إليه من أن الأرض مسكونة بالجن والأخيلة والأرواح (النص الانكليزى)

انطمست حروفه وتداخل بعضها فى بعض فليس إلى فهم ما فيه من سبيل ! . . . إنها الآن لا تذكر أكان « للطفل » قد ناداها بصوته المذب المستحب يستدعيها للمرة الأخيرة أم أنه لم يفعل من ذلك شيئاً ؟ بل هى لا تذكر أكانت قد تزودت فى هذه السفرة المجهولة طيبها — بهدية من « مال الحب » تدفعه أجرة السفر إلى تلك الربوع الصامتة ، أم أن شيئاً من هذا لم يكن ؟ . . . هى لا تدرى من كل ذلك شيئاً .

وما أرى إلا أنها حسبت هـذا المكان المظلم حفرة القبر ، حيث لا يرى فيها ولا يسمع منها شىء ، وحيث الحركة منقطعة ، فليس إلى صنع شىء من سبيل ، بل كل ما هنالك ظلام عام يشمل كل شىء .

ولكن عند ما هبت نفحة من الهواء الندى من جهة الباب ، ووصل إلى أذنيها نقيق الضفادع ، عاد إلى ذاكرتها كل شىء ، وعرفت صلتها بهذا العالم ...

وأنار وميض البرق الخاطف ما حولها فرأت حوض الماء ، وشجرة « البانيان » والبراح الفسيح وأشجاراً كانت تقوم على بعد . . . رأت ذلك كله وتذكرت أنها كانت تجىء إلى نفس هذا المكان فى بعض الليالى المقمرة لتستحم فى هذا الحوض ، ولكم كان الموت فظيعاً مروعاً حين قارنت ذلك الماضى ببهجتها ممددة على أرض « المحرقة » !

لقد خطر لها — أول ما خطر — أن تعود إلى الدار ولكنها وقفت تحاور نفسها : « إننى ميتة ، فكيف يمكننى أن أعود إلى البيت ؟ ستكون عودتى نكبة لهم ؛ فانى قد غادرت مملكة الأحياء ، وما أنا الآن سوى خيال ... محض شبح ... فان لم يكن هذا حقاً — واستطردت تبرهن على كلامها السابق — فان لم يكن هذا حقاً ، فكيف أمكنها الافلات من قلعة « ساراد سنكار » الحصينة إلى أرض « المحرقة » فى منتصف الليل ؟ ثم إن شعائر الاحراق لم تنته فأين المكلفون باحراقها ؟ »

ثم استعادت مشهد ساعة موتها فى دار « سارا دسنكار » فصح عندها — وهى فى هذه الفلاة — أنها ليست من أفراد هذا المجتمع إنما هى مخلوق مرعب مشؤوم ، هى محض خيال ...

وبهذه الفكرة التى استنتجتها حسبت أن كل العرى التى كانت تربطها بهذه الدنيا قد وهت فانفصمت وخيل إليها أن بمقدورها — وهى صاحبة القوة الخارقة والحرية المطلقة — أن تفعل ما تشاء ، وأن تذهب حيث تريد ...

وجنت بوحى هذه الفكرة الجديدة فانطلقت خارجة من الكوخ بسرعة الريح ووقفت على أرض « المحرقة » وقد فارقتها كل ما كانت لها من آثار الحياء والخوف ... ثم لما سارت وأوغلت فى السير نال قدميها التعب ، وأدرك جسمها الاعياء فكانت تتخبط على غير هدى تارة فى الحقول المنخفضة وطوراً تخوض إلى ركبتها فى المياه !

وسمعت عند انبثاق أول أشعة الفجر صوت بعض الطيور فى ذرى الأشجار عن بعد ، فاعتراها الخوف إذ ما كانت تدرى نوع صلتها بالأرض وما هو عالم الأحياء ، فقد كانت إلى زمن يسير فى الفلاة الفسيحة بأرض المحرقة ، وقد أسدل الليل عليها سجفه فغطاها . كانت شديدة الثقة والاطمئنان متحكمة فى مملكتها التى تخيلتها لنفسها ، ولكن ما إن أضاء النهار ، حتى ملأ الناس نفسها رعباً منهم ! ذلك

بأن كلا من «البشر» و «الأرواح» يخاف الآخر، خوفاً منشؤه سكنى جماعات كل طائفة على جانب مختلف عن جانب الآخرين على ضفاف نهر الموت[1]

— ٣ —

كانت ثيابها ملطخة بالأوحال، ومظهرها — وهى تدلج بالليل — وأفكارها الغريبة السود، كل أولئك كان قد أكسبها هيأة امرأة مجنونة تلقى الرعب فى قلوب الناس، بل قد تغرى الأطفال على حصبها بالحجارة

وكان أول من رآها — لحسن الحظ — رجل مسافر اقترب منها حين وقعت عينه عليها، وقال:

— أيتها الأم الوقور ... أين تقصدين بهذا المطاف؟

ولم تستطع «كادامبيني» أن تجمع شتات أفكارها فتجيبه على ما سأل، وإنما كان جوابه منها نظرة ألقتها عليه وهى غارقة فى بحر من الوجوم عميق ... لم يكن فى حسبانها أنها ما زالت على صلة بأهل هذه الوجود بحيث يروعها امرأة وقوراً تستحق أن تسمع من مسافر سؤالاً يطرحه عليها ...

ثم استأنف الرجل قائلاً: تعالى يا أماه سأحملك إلى دارك فخبرينى أين تسكنين؟

وفكرت «كادامبيني» فيما عساها أن تقول للرجل ... لم يكن لها دار أب تأوى إليها، كما أنه ليس من الصواب أن تعود إلى بيت حميها بعد الذى حدث ... وإنها لكذلك إذ ذكرت صديقة طفولتها «جوكايا» ... إنها لم ترها منذ أيام الشباب، ولكنها كانت مع ذلك تراسلها، وربما خاصمتها أحياناً، وسبب تلك الخصومات أنها كانت تريد أن توضح لصديقتها أن حبها لها لم يكن ذا نهاية ولا محدوداً، فى حين أن «جوكايا» ما كانت تصدق أن حب صديقتها لها يساوى ما فى صدرها لتلك الصديقة من الحب!

وكانت كل من الصديقتين معتقدة بأن تلاقيهما — إن حدث مرة — فلن يفصمه الفراق!

وأجابت «كادامبيني» المسافر قائلة:

— إنى قاصدة إلى دار «سريباتى» فى «نيسندابور» ولم تكن هذه المدينة قريبة، ولكنها كانت تقع على طريق الرجل فحملها إلى دار صديقتها. ولم تعرف الواحدة الأخرى بادئ ذى بدء ولكنهما استعادتا — شيئاً فشيئاً — ملامح الطفولة التى كانت آثارها على وجهيهما فتعارفتا

قالت «جوكايا» تخاطب صديقتها:

— يا للحظ! ما كنت أحلم بأننا سنلتقى أبداً، ولكن حدثينى كيف جئت إلىّ يا أختاه؟ كيف أفلتِ من دار حميك؟ إنهم بطبيعة الحال لم يسمحوا لك بالخروج!

ولكن «كادامبيني» ظلت صامتة ولم تجب؛ ثم قالت أخيراً:

— أختاه! لا تسألى عن حمى، بل دعينى أتبدّ فى دارك هذه زاوية، واحسبينى فى عداد الخدم، فسأقوم بكل حاجاتك ...

فصرخت «جوكايا» قائلة:

— ماذا؟ أأحسبك فى عداد الخدم فى دارى؟ أنت يا أعز صديقاتى على؟ أنت التى ... ومضت فى حديثها على هذا النمط

ثم جاء «سريباتى» زوج «جوكايا» فحدّقت

(١) أى أن الموت هو النهر الذى يجرى بين أرضى هاتين الطائفتين فيكون حدودها الطبيعة الجغرافية

« كادامبيني » فى وجهه طويلاً ، ثم ابتعدت عنه على مهل ... ولم يكن فيما عملت علامة من علامات الاحترام أو الأدب ؛ غير أن « جوكايا » اعتذرت عن صديقتها إلى زوجها من هذا التصرف الشائن ، ولكن « سريباتى » الذى كان يصدق كل ما كانت تقوله زوجه — قطع حديثها عليها وتركها خارجاً ، مضطربة قلقة البال

* * *

... عادت « كادامبيني » إلى صديقتها ولكنها لم تكن فى الحقيقة أمامها وجهاً لوجه ، بل كان الموت يفصلهما ، إنها لم تكن تألف الناس أو ترتاح إليهم ، ذلك بأنها كانت قد وقعت فى حيرة من « وجودها »[1] هذا ، مع كونها بقيت مالكة شعورها وملكاتها العاقلة ...

... كانت ترنو إلى صديقتها وتطيل الفكر وتحاور نفسها بهذا الحديث :

— إن لها زوجها وأعمالها . إنها تعيش فى عالم بعيد عن الذى أعيش فيه . إنها تساهم فى تحمل التبعة والمسؤولية مع الناس فى هذا الوجود ، بينما أنا محض روح . إنها فى عالم الأحياء ، وأما أنا ففى عالم الخلود ...

وما كانت « جوكايا » بالمرتاحة المطمئنة ، ولكنها ما كانت تدرى سبب ذلك ، والمرأة لا تحب « الغموض » أو الابهام لأنه مهما تصور فى صور شتى من « شعر » أو « بطولة » أو « معرفة وبحث » فانه لن يكون فى شكل .. أعمال « المنزل » وتدبير أموره[2] ، وذلك ما يجعل المرأة تعصف بكل شىء لا يناله إدراكها ، أو هى — على الأقل — تتناساه أو تلبسه صورة أخرى من عند نفسها فان لم تستطع أن تضمه فى واحدة من هاتين المنزلتين فليست هى امرأة ... إذ أنها عندئذ تخسر طبيعتها النسوية !

* * *

كانت « جوكايا » كلما أمعنت « كادامبيني » فى الذهول — ازدادت هى ضيقاً وتعجباً مما كان يثقل عقل صاحبتها من الأفكار ... ثم نجم من بعد ذلك خطر جديد ... إن « كادامبيني » أخذت تخاف من نفسها ! وأين تستطيع من نفسها المهروب؟ إن الذين يخافون الأرواح والأخيلة إنما يخافون — فى الواقع — ما وراء تلك الأرواح من أخطار وهم خائفون دائماً أينما حلوا ما دام بصرهم لا يقع على شىء ، ولكن خوف « كادامبيني » غير خوف الناس ، إن خطرها الذى تخشاه إنما هو فى نفسها هو ليس خارجاً عنها !

فكانت إذا خلت إلى نفسها فى الغرفة ، إذا جن المساء صرخت خوفاً ، وإذا رأت ظلها فى نور المصباح ارتعدت فرائصها فرقاً ! وكان من ذلك أن عم أهل الدار نوع من الفزع أقلقهم جميعاً ... حتى كانت الأشباح تتراءى للخدم ، بل و « لجوكايا » نفسها أيضاً ...

وفى منتصف إحدى الليالى خرجت « كادامبيني » من غرفتها مولولة باكية ووقفت بباب غرفة صديقتها قائلة :

— أختاه ! يا أختاه .. دعينى أرقد عند قدميك ولا تتركينى أنام وحدى !

وما كان سخط « جوكايا » ليقل عن فزعها ؛ لقد كان بودها أن تطرد صديقتها فى كل حين من الدار !

(١) يقصد حياتها الثانية التى بدأت بعد صحوتها
(٢) أى أن الغموض لا يتلاءم وطبيعة المرأة

وبعد محاولات شتى قام بها «سريباتى» استطاع أن يهدئ ضيقهم ويدخلها إلى غرفة مجاورة لتنام فيها

* * *

وفى اليوم التالى استدعت « جوكايا » زوجها إلى غرفتها وقالت تعنفه :

— هل تدعو نفسك رجلا ؟ امرأة تهرب من دار حميها ثم تدخل بيتك ويمضى على ذلك شهر وأنت لا تشير إلى ضرورة ذهابها ولا تظهر منك بادرة أو علامة تدل على هذا ! سأعدها مِنَّة على لو فسرت لى نفسك ... إنكم معشر الرجال جميعاً متشابهون ...

... والرجال باعتبارهم جنساً قائماً بذاته — لهم تحزب طبيعى ضد النساء على العموم ، وهذا ما يجعل النساء يحاسبنهم ويبالغن فى الحساب

لقد كان « سريباتى » يقسم لزوجه أن شعوره نحو « كادامبينى » ما كان ليتعدى الحد الذى تقتضيه الشفقة والرأفة ، وإن كان هذا لا يتفق فى الظاهر مع سلوكه معها . إنه يعتقد أن أهل دارها قد أساءوا معاملتها حتى لم تكد تطيقهم وذلك ما دعاها إلى الالتجاء إلى هنا . أفلو كان لها أب أو أم أكانا يتركانها كذلك ؟ وعلى هذا فقد قال :

— دعى الأمر كما هو ... وأنا لا أستطيع أن أؤلم هذه البائسة بأن أطلب منها الخروج من الدار

ولكن « جوكايا » حاولت شتى المحاولات لتحمل زوجها الخامل (!) على أن ينزل عند ماتريد حتى ارتأى — إحلالا للسلم فى داره — أن يرسل خطاباً إلى حمى « كادامبينى » ولكنه رأى أن نتيجة الرسالة قد لا تأتى بالمطلوب . ولذا قرر الذهاب إلى « رانيهات » ليجد الحل المعقول

وذهب « سريباتى »

وعادت « جوكايا » تقول لصديقتها :

— أيتها الصديقة ، إن من الصعب عليك أن تبقى هنا بعد هذا ... ما تَرَين الناس قائلين ؟

وتفرست « كادامبينى » فى وجه صديقتها وقد استولى عليها الدهش ثم أجابتها :

— وماذا علىّ من الناس ؟

ودهشت « جوكايا » مما سمعت ثم قالت بحدّة :

— إذا لم تكن لك بالناس علاقة ولا مساس ، فان لنا بهم ما ليس لك . كيف نفسر وجود امرأة غريبة وتأخرها عندنا ؟

فسألتها « كادامبينى » :

— وأين هي دار حَمِى ؟

قالت « جوكايا » وهى منذهلة ، مخاطبة نفسها :

— يا للهول ! ما الذى ستقوله المرأة المنكوبة بعد ذلك ؟

وفى بطء شديد أجابت « كادامبينى » :

— وما يعنينى من أمركم ؟ أأنا من أهل الأرض ؟ إنكم لتضحكون وتبكون وتحيون وكل منكم محتفظ بالذى له ، وأنا أتطلّع فقط ... أنتم بشر ، وأنا محض خيال ... روح ... إننى لست أقدر أن أفهم كيف أبقانى الله بينكم فى عالمكم هذا !

... وكانت نظراتها وكلامها غريبين بحيث لم تستطع أن تفهم «جوكايا» من مرماها إلا اليسير . ولم تكن بعد ذلك قادرة على طردها ، ولا على أن تسألها غير ما سألت ، وانصرفت مثقلة الرأس بالأفكار ...

* * *

... كانت عودة «سريباتى» من « رانيهات » فى قرابة الساعة العاشرة مساء . وكان يغشى وجه الأرض سيل جارف من مياه المطر الهاطل بغير

انقطاع ، حتى ليخيل للمرء أن ليس لهذا النهتان حد ينقطع عنده ، ولا لهذه الليلة آخر تنكشف عنه

وابتدرت « جوكايا » زوجها قائلة :

— حسن ...

ولكنه أجابها : « لدى الكثير مما أريد أن أقول » قال ذلك وقام إلى ثيابه فغيرها ، وأكل عشاءه ثم جلس ليروح عن نفسه بغليون من التبغ . وكان خلال ذلك شارد الذهن مشتغل الفكر ... وأما زوجه فقد كانت أثناء هذا تجاهد فضولها لتخفيه حتى إذا رأته استقر فى مقعده جاءت إليه فسألته :

— حدثني الآن عما سمعت !

— إنك ارتكبت بالذى اضطررتنى إليه أشنع الخطأ ... !

وأغضبها ماسمعت ... ذلك بأن النساء لا يرتكبن الأخطاء ، أو هن إن ارتكبنها فان الرجل العاقل الفاضل لا يأبه لذلك ، بل ربما كان الخير فى أن يتحملها على عاتقه هو ؛ وعلى ذلك فقد نَبَرتْ « جوكايا » مغضبة تقول :

— أجائز أن أسمع ما تقول ؟

فأجابها « سريباتى » : « أجل ! فالمرأة التى أدخلتها دارك لم تكن « كادامبينى » صديقتك ! »

وأحنقها أن تسمع هذا ، وأن تسمعه من زوجها ، فأجابت :

— ماذا ؟ ألست أعرف صديقتى ؟ أكان على أن أسألك عن أمرها لتعرفها لى ؟ إنك لماهر حقاً !

وأفهمها « سريباتى » أنه لا لزوم للجدال فى مهارته وذكائه ، فإن فى وسعه التدليل على صحة مازعم ذلك بأن « كادامبينى » صديقة « جوكايا » قد توفيت !!

فأجابته زوجه قائلة : « إصغ إلى ... لا شك فى أنك ارتكبت خطأ جسيما فإما أنك ذهبت إلى دار غير دارهم خطأ ، وإما أنك لاتحاول أن تطلعنى على جلية الخبر ! من ذا الذى كلفك الذهاب بنفسك ؟ اكتب رسالة وسيتضح كل شئ »

وكان « سريباتى » قد آلمه عدم اطمئنان زوجه إلى « حسن تصرفه » فاصطنع لذلك شتى البراهين ، ولكن بغير جدوى ... وبقيا كذلك حتى منتصف الليل فى أخذ ورد . ومع أنهما كانا متفقين على إخراج « كادامبينى » من البيت ، ومع اعتقاد « سريباتى » بأن ضيفته تخدع زوجه بمعرفتها المكذوبة ، وأن « جوكايا » زوجه تخونه فى هذه الضيفة بقبولها تلك المعرفة المكذوبة وإقرارها ضيفتها عليها . . . مع ذلك كله فما توصل لا هو ولا زوجه إلى نتيجة ما ، إذ لم يكن أحدهما — هو وزوجه — ليعترف بانتصار صاحبه فى الجدال ...

* * *

قال أحد الزوجين :

— إننا الآن فى مأزق ظريف حقاً . اسمعى أقل لك ، لقد سمعت الخبر بأذنىّ هذين فليس إلى تكذيب ما سمعت من سبيل !

فأجابته زوجه محنقة غضبى : « وماذا يعنينى مما تقول ؟ إننى أستطيع أن أبصر بأم عينى دون أن يساورنى الشك »

وبعد هذا الحوار قالت « جوكايا » لزوجها : « حسن ، فقل متى توفيت « كادامبينى » ؟ » تريد بذلك أن تجد فرق مابين تاريخ آخر رسالة وردتها من صديقتها وتاريخ الوفاة ؛ ولكنها إذ علمت تاريخ الوفاة وجدته بعد آخر رسالة من رسائل صديقتها بيوم واحد فقط ! وهال « جوكايا » الأمر وارتجفت

عند رؤيتها ذلك النارنج ... بل إن « سريباتى » نفسه لم يبق على رباطة جأشه

... وإنهم لكذلك إذ فتح الباب بغتة ، وهبت من جهته ريح ندية فأطفأت المصباح فخيمت سدف الظلام على المكان كله وإذا « كادامبينى » تظهر فى الغرفة . . لقد كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، والمطر ينهمر في الخارج هتوناً . فتكلمت « كادامبينى » قائلة :

— أيتها الصديقة ... إننى « كادامبينى » التى تعهدين . ولكنى لست من عالم الأحياء الآن . إننى ميتة !!

فأما « جوكايا » فقد صرخت رعباً ، وأما زوجها ، فما كان قادراً على أن ينبس ببنت شفة ... واستمرت « كادامبينى » تكمل حديثها :

— . . ولكن النجاة فى بقائى ميتة . . إننى ما ارتكبت خطأ ؛ إنه لا مكان لى بين الأحياء ولا فى عالم الأموات . . آه ، فالى أين أنجه ؟ ؟ وصرخت كأنها تريد أن توقظ العالم فى ذلك الليل الهامس المطير سائلة هذا السؤال : « آه . . إلى أين أنجه ؟ ! » قالت هذا وخرجت تاركة صديقتها مغمياً عليها فى دارها المظلمة — تضرب فى الأرض تفتش عن . . مأواها » ! !

* * *

لعل من الصعب أن نقول كيف وصلت « كادامبينى » إلى بيتهم فى « راينهات » . . فقد تكتمت عند وصولها أولاً ولم تر نفسها لأحد ، بل قضت سحابة نهارها فى معبد طال عليه القدم — تتصور جوعاً . . وعند ما عمت ظلم السحاب الماطر الكون ، ودخل الناس إلى بيوتهم فراراً من العاصفة المنتظرة جاءت « كادامبينى » مقتربة من دار حميها ، خافقة الفؤاد ، ودخلت مستترة وراء قناع كثيف أسدلته على وجهها ، فلم يعترضها أحد من البوابين حاسبين أنها من بعض الخدم .

وظل المطر ينهمر ، والريح تعصف بغير انقطاع

. . كانت ربة البيت — زوج « سارادا سنكار[1] » تلعب الورق مع أخت لها مترملة ؛ وكانت إحدى الخادمات فى المطبخ . أما الطفل فقد كان راقداً فى غرفة النوم . ودخلت « كادامبينى » الغرفة على صغيرها دون أن تشعر أحداً أو تستلفت نظر أحد ، وليس يدرى لم اختارت أن تجىء إلى دار حميها ؛ بل إنها هى نفسها لم تدر كيف كان ذلك منها ، إنما كانت قد تاقت إلى رؤية الطفل تارة أخرى . ولم تكن قد فكرت فيما ستعمله حين تنتهى من زيارة طفلها ، ولا أين تذهب .

رأت فى الغرفة المنسارة الطفل راقداً ، وقد انكمشت قبضتا يديه ، وأنهكت بدنه الحمى ! لشد ماتشوق إليه فؤادها وظمأ إليه حين رأته راقداً كذلك آه لو أمكنها ضم هذا البدن المعذب إلى صدرها .

وحالا خطرت لها هذه الفكرة : « إنى لا أحياء فمن سيرانى ؟ هذه أمه تحب « المعاشرة » و « القيل والقال » كما تحب الورق ! إنها لم تكن تقلق له أو تتعب من أجله على الأقل . . فمن يرعاه الآن كما كنت أفعل ؟ ؟ » . واستدار الطفل من جنب إلى جنب ، وصرخ — وهو مايزال فى نومه — : ياعمة ، أعطنى ماء ...

إذاً فحبيبها لم ينس بعد عمته ... وفى سرعة جنونية عمدت إلى شىء من الماء فسكبته فى كوبة

(١) سارادا سنكار هذا هو أمير مقاطعة « راينهات » وهو بطلة القصة « كادامبينى » وأبو الطفل « سايتس » الذى عنيت بتربيته

قربتها من صدرها ثم قدمتها له ليشرب .

ولم يكن الطفل ليستشعر الغرابة فى أخذ الماء من اليد التى اعتادها من قبل ، ما دام لم يصح من نومه تماماً

غير أن « كادامبينى » أرضت شوقها المُلِحّ بتقبيله ثم هزته ليستأنف رقاده ، ولكن الطفل استيقظ وعانقها :

— أقَدِمْتِ يا عمة حقاً ؟

— نعم أيها الحبيب

— إنك عُدْتِ ثانية ، فلا تموتى تارة أخرى

وقبل أن تتمكن من أن تجيبه على ما قال باغتتها المصيبة ، إذ دخلت إحدى الخادمات بكوبة مليئة بالحِسَاء . . . ولكنها ما إن دخلت حتى أسقطت ما فى يديها ... وسمعت ربة الدار الصوت[1] فجاءت إلى الغرفة ! فاذا بها تقف كالخشبة المسندة لا تقدر على الفرار ولا الكلام . وأبصر الطفل كل هذا فهاله الأمر وصرخ باكياً :

— إبتعدى يا عمة ... إذهبى ... إبتعدى !

والآن ، الآن فقط أدركت « كادامبينى » أنها لم تمت !

إن الغرفة هى الغرفة الأولى ، والأثاث هو الأثاث القديم، والطفل هو بعينه الطفل، وحبها هو حبها الأول . . . كل أولئك قد عاد إلى « الحياة » كما عادت هى !

كانت قد عرفت فى دار صديقتها — أن « كادامبينى » صديقة الطفولة قد ماتت . أما الآن فقد علمت — وهى فى غرفة طفلها — أن « العمة » لم تمت . وقالت « كادامبينى » بصوت ينم عن الألم :

— أختاه ... لم تخافون منى ؟ أنظرن إنى كما عهدتمونى

ولم تُطق حماتها صبراً وسقطت مصفرة الوجه قد أغمى عليها ...

. . . ودخل « ساراداسنكار » نفسه قصر الحرم ، وقال لها وأمارات الحزن والألم بادية على وجهه

— أهذا حسن ؟ إن « سايتس » ولدى الوحيد فلم أرَ بُيْتِهِ نفسك ؟ ألسنا جميعاً أهلك ؟ لقد أهمل منذ أن ذهبت ، فكان يناديك ولكن بغير جدوى .. إنك قد غادرت العالم وقطعت صلاتك به ، وسنقيم لك كل شعائر الشرف والتكريم . وما احتملت « كادامبينى » أكثر من هذا فأجابت :

— أوه . . . إنى لست مَيتةً . . . آه كيف أستطيع أن أدَلِّلَ لكم على أنى لست من الموتى ؟ إنى حيّة . . . إنى أعيش . . . قالت ذلك وتناولت طاساً من النحاس فصكّت به جَبْهتها فتفجر الدم من جرحها ، فصرخت قائلة : « أنظروا . . . إنى أعيش »

كان « ساراداسنكار » قد وقف كصورة ... والطفل قد ملء رعباً . . . وأما المرأتان فما زالتا مضطجعتين ... ثم صرخت كادامبينى :

— « لست ميتة ! لست ميتة »

ونزلت السلم إلى بئر فى قصر النساء وألقت بنفسها فيه ...

... ومن الطابق الأعلى سمع « ساراداسنكار » صوت ارتطامها فى البئر

كان المطر يتحدر طول الليل والنهار الذى أعقبه إلى الفجر .. إلى الظهر .. لقد ماتت « كادامبينى » وبموتها برهنت على أنها لم تكن فى الأموات !

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

(١) يقال لهذا الصوت فى العربية « الدم »

السكينة

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب كمال الحريري

وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة الأم « ما كلوار » تحمل المعلم « شيكو » خمار « دي به فيل » وهو رجل في العقد الرابع خشن المعارف هائل الخلقة أحمر الوجه بطين سمين، في وجهه سيما الخبث والمكر

هبط الرجل سلم العربة ، ثم ربط حصانها بخشبة ممترضة ومشى إلى ساحة الدار

كانت الأم « ما كلوار » تمتلك أرضاً تجاور مزرعته ، طالما تشوفت نفسه إلى ابتياعها منها ، وضمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة تعصب من العجوز عنيد وتصلب شديد. وكانت تقول:

— إني ولدت في هذه الأرض ، وستجنني تربتها ...

في هذا الصباح ألفى العجوز ، وهي دردبيس في الثانية والسبعين من عمرها ، أمام باب منزلها معنية بتقشير « البطاطس » كانت منكمشة الجلد ، جافة اللحم ، منضوخة الوجه . وبرغم ذلك كانت دائبة على عملها وكأنها في ربيع العمر

تقدم منها المعلم « شيكو » وربت على كتفها في دعابة ثم قال :

— وصحتك أيتها الأم، هل هي جيدة وأبداً جيدة؟

— أحمد الله ، وأنت أيها المعلم ؟

— بخير ، ولولا قليل من الألم لكنت هانئاً راضياً

— جدُّ مليح . ثم لاذت بالصمت وأخذت تقشر البطاطس وتديرها في حذق ومهارة ، بين أصابع يابسة عقداء معروقة ، تشبه أرجل السراطين ، وفي يدها اليمنى سكين عتيقة منثلمة لا تكاد تقطع الجبن

وحين فرغت من البطاطس، وأضحت الماعة صفراء ، ألقت بها في قدر مملوءة ماء. فإذا دجيجات وأفراخ تسعى إليها ناقة مقوقئة ، ثم تختاس ما تبقى في حجرها من قشور البطاطس ، وتتراكض في خبث عنها وفي منقار كل منها ما غنمت من قشور

كان المعلم « شيكو » يرقب هذا المنظر في سأم وضيق وفي نفسه أمر ، وعلى لسانه كلام يجتهد في انتزاعه ، وأخيراً وفق فقال :

— ألا خبريني أيتها الأم « ما كلوار »

— وما عساي مخبرتك به ؟

— ألا زلت ترفضين بيعي مزرعتك ؟

— هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم «شيكو» فلم إقلاقي به مطلع كل صباح ومهبط كل ليل ؟

— ولكني يا سيدتي وجدت حلاً للمسألة إن رضيت به خرج كلانا راضياً بصفقة غير أسف ولا مغبون

— وما هو هذا الحل ؟

تبيعيني أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها ما بقيت في قيد الأحياء ، أفلا يرضيك هذا أيضاً ؟

فشغلت العجوز عن تقشير البطاطس ، وراحت ترمي الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين خلقين أجمدين . ثم قال الرجل مفسراً :

— إنك إن ترضي بهذه الصفقة تتسلمي في منتهى كل شهر مائة وخمسين فرنكا أحملها إليك في

حبيبتي. أتتدبرين قولي؟ أتفقهين حديثي؟ مائة وخمسون فرنكا ثم لا تتبدل بك حال، ولا تتغير حياة، فستظلين في حفلك آمنة السرب رافهة العيش لايدينك أحد ولا تدينين لأحد، ولا تعملين أمراً، ولا تنصبين نفسك لعمل. إلا أن يكون استلام مائة وخمسين فرنكا، مطلع كل شهر، عملاً شاقاً يكد وينصب. قال هذا وطفق ينظر إليها فرحاً مستبشراً وفي وجهه الطيبة والصلاح والمسكنة... والعجوز تلحظه حذرة متيقظة. وقد كبر في وهمها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة. على أنها سألته في خبث:

إنك لتؤكد لي أن المزرعة ستظل في حوزتي فهل بلغ من أريحيتك أن تتبرع لامرأة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك؟ قال المعلم شيكو وقد أدرك ما تنطوي عليه غمزة العجوز

لا أثقل عليك يا سيدتي في شأن الأرض، فلسوف تغلين خيراتها وتنتفعين بثمراتها ما مد الله في حياتك العزيزة. غير أني أرجوك أن تكتبي لي حقاً شرعياً، يخولني حق امتلاكها بعد عمرك الطويل إن شاء الله. ولبثت المرأة وهي تصغي لقول المعلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراماً ولا نقضاً، ولا لموقفها من الرجل إجابة ولا رفضاً، وأخيراً قالت:

إنه لا يسعني رفض اقتراحك، فلو أنظرتني أسبوعاً آخر أتبصر أمري وأروي رأيي. فأطاع المعلم «شيكو» ثم غادر الأم فرحاً نخوراً، كأنه الملك الجبار، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار... أما الأم «ماكلوار» فقد أمضت أيامها ساهمة حالمة، لا يستقر جنبها على مضجع، ولا يزور جفنها سنة من نوم. ثم استشرت بها حميا التردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام، لولا أن ذكرى المائة والخمسين فرنكا الطنانة البراقة، التي توشك أن تتدحرج على حجرها مطلع كل شهر، كانت تلهب رغبتها الخامدة وتذكي أطماعها الهامدة

وأرادت أن تضع لترددها حداً، فمضت إلى المسجل الشرعي تنفض له جملة حالها وتستنصحه في أمرها. فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضى بحل المعلم «شيكو»، ولكنه اشترط عليها لذلك، أن يضاعف لها الراتب فيجعله ثلثمائة بدلاً من مئة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوي في أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك. ثم قال لها في أضعاف حديثه:

— لئن عمرت خمسة عشر عاماً، فلن ترزئي صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك...

فاستفقات جسم العجوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلثمائة فرنكا التي سوف تحظى بها رأس كل شهر. ولكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبلة الخاطر، تنوشها الهواجس، وتتوزعها الوساوس؛ فهي تتوقع حيناً مفاجأة مفجعة وآناً مكيدة مستورة، لا تبصرها ولكنها تحسها. ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل، وتواجه المقترح من كل جهة. ثم، ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأي.

وجاءها المعلم شيكو يستطلع رأيها ويستعلم غرضها الأخير فأنهت إليه قرارها النهائي، بلزوم رفع مرتبها الشهري، وحين رأت هزة الاخفاق تركب أوساله، ونار الغيظ تحتدم في عينيه، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه، أظهرته على قائمة السنين التي يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت:

— إني من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى سريري إلا مستندة إلى الأذرع، أو محمولة على الظهور

ومهما يمتد بي خيط الهرم، فانه كخيط العنكبوت

وشيك الانبتات سريع الانقطاع . وهل بعد الثلاثة والسبعين عاماً التي توفر كاهلي حياة ترجى أو عيش ينتظر ؟ وقاطعها المعلم مغيظاً فقال :

— إنها لمحاولة فاشلة منك ياسيدتي أن تصطنعي العجز وتتظاهري بانقطاع المنة . ثقي أن منجل الموت لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة في أقل تقدير، وإني أراهن على أنك أنت التي ستتولين دفني ، فما هذا الخوف والفزع من الموت ؟

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ والرد، وجهد المعلم «شيكو» الجهد كله ليقنع العجوز بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل. وحين لم يجد مندوحة من إجابتها رضي مكرهاً بدفع الثلاثمائة فرنك ... وغبرت سنين ثلاث وصاحبتنا العجوز كالسروة العتيقة لا يزيدها المزق إلا صلابة وجلداً على الأيام ، حتى يئس المعلم من موتها وخيل إليه أنه مرغم على دفع مرتبها الضخم نصف قرن أو يزيد ، وأن صفقته كانت هي الخاسرة المغبونة ، وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الافلاس إن ظلت معاهدة الصداقة والود بين العجوز وعزرائيل متينة العرى

كان يتردد على المرأة الفينة بعد الفينة بحجة السؤال عن نضوج الحنطة ، أوالاستفسار عن موعد الحصاد ، فكانت تستقبله في خبث ، وفي نفسها الشماتة والتشفي وفي معارف وجهها صورة الافتخار والزهو للدور المضحك المسلي الذي لعبته على مسرح بلاهته وغفلته. فكان يرتد سريعاً إلى عربته ويجمجم :

— وإذن فليس في نية هذه البهيمة أن تموت؟ لم يكن يعرف لمشكله حلا ولا لعقدة أزمته فكاكا . فكانت تمر به ساعات يود فيها لو أهوى على عنق العجوز فخنقه ، وروحها فأزهقه ، مما في نفسه منها من الغيظ والحنق والموجدة ، وظل زمناً يلتمس وجهة الحيلة للخلاص من طلعة العجوز المشؤومة ، وأخيراً ظفر بما يرجو فتدا عليها يوماً يطفر من البشر والسعادة ، ويصفق بيديه من الفرح والمرح ، وبعد أن ناقلها برهة حديث المجاملة والود قال :

— ألا تولي لي أيتها الأم ما كاوار فيم امتناعك عن زيارة منزلي حين مرورك على حانة «إيدي فيل»؟ إن الحديث فيه ليلذ ويمتع ، وأنا هناك ويا للأسف مقطوع الصلة من الصديق ، منبت الوشيجة من القريب ، لا يؤنس وحشتي زائر ، ولا يمر عليّ عابر. فزوريني إن تكرمت وكلي ماطاب لك فلست مرزئك مالاً ولا مكلفك دفع طعام أو شراب . زوريني ففي زيارتك تشيع البهجة في قلبي وينتشر السرور في داري

وفي الغد لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة ، فراحت إليه في عربتها ، والشمس لم تغادر خدرها الوردي ، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربة في الاصطبل ، ثم دخلت عليه طالبة الغداء الموعود

لم يكد يصدق عينيه المعلم شيكو ، وراح ينشط في خدمتها ويجتهد في مرضاتها ، كأنه أمام سيدة نبيلة لا قروية بخيلة ، ثم أخذ يفنن في تقديم فاخر الأطعمة والآكال وغريض اللحم ، من الطير المبهر ، والدجاج المحمر ، ولحم الخنزير المشوي ، وأصناف من الخضار والفاكهة والتوابل ، ولكنها لم تصب من هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها العجوز التي اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق ، أو قطع الخبز المغموسة بالزبدة ، وألح الرجل وعزم عليها . ولكنها لم تأكل مضغة ولم تشرب جرعة حتى القهوة امتنعت عن تناولها. وأخيراً قال لها وهو يناولها قدحاً من « الكونياك » :

— أو ترفضين أيضاً هذا القدح ؟

— أما هذا فأقبله دون أن أقول لا . فرجت

أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

— « روزالى » أيتها العزيزة . اعملى لنا كل فاخر ممتق من الكونياك . وظهرت الخادمة تضم إلى صدرها زجاجة طويلة ممشوقه ازدانت فوهتها بطابع الكونياك الفاخر . فتناولها المعلم شيكو وأفرغ منها قدحين، ثم عاطى العجوز أحدهما. قائلا:

— إنه لكونياك لذيذ شهير ، أفلا تتذوقينه ياسيدتي ؟

فتناولته الأم « ماكلوار » شاكرة وطفقت تتحساه جرعات صغيرات ، كي تطيل مدة نشوتها وانبساطها . وما إن فرغت من القدح الأول حتى أفرغ لها المعلم قدحاً ثانياً . فأعرضت عنه أولاً ثم أكرهها المضيف بالقول اللطيف والتجمل الظريف والنكتة المستملحة . وكان عازماً على إردافه بثالث ورابع لولا أن عالنته برفضها وامتناعها .

— ولكن هذا ياسيدتى ليس خمراً إن هو إلا حليب مصفى ، أبتلع عشرة أقداح منه دون أن يتمتعى السكر أو تذهب بوقارى النشوة ، لا يكاد يستقر فى الجوف كالسكر المذاب حتى يتبخر فى الجسم دون أن يجد طريقه إلى الرأس . وليس كمثله شيء لصحة الجسم وابتعاث النشاط . فدعا ذلك العجوز إلى أن اجترعت نصف الكأس الثالثة، ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شعرت بفعل المسكر بأطرافها ، وتلعاب الخمر بأعطافها . فأهرعت إلى عربتها ومضت ... وغدا عليها صاحبنا فى عربته المعروفة ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما المجلس أخرج من جوف العربة برميلا صغيراً ، فيه خمر الأمس ، ثم جلسا يعيدان سيرة البارحة ، ولما استقر فى جوف كل منهما ثلاثة أقداح ، غادرها المعلم قائلا :

— ما أراني بحاجة لأقول لك إن الخمر التى أبقيتها لك تكفيك مدة. فاذا فرغت منها فعندى لك اللذيذ المعتق لا أبخل عليك به ولا أضن . وكلما ألححت فى الطلب ألح علىّ السرور وطبت نفساً ...

وآب إليها بعد أيام أربعة ، فألفاها على الباب معنية بتقطيع الخبز الذى تعده للحساء ، فاقترب منها أنفاً لأنف وبدرها بتحية الصباح ، فنفحته منها رائحة «الكحول» وملأت خياشيمه . هنالك أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

— ألا تقدمين لى قدحاً من الكونياك ... ؟

وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشرب كل منهما نخب صاحبه ... ولم يطل الأمر بالأم « ماكلوار » حتى شاع عنها أنها تعاقر الخمرة متخلية لنفسها . وفى الحق كان الجيران يلقونها إما مستلقية أمام مطبخها وساحة دارها لا تعى، أو منطرحة فى الطرق والشوارع لا تحس ، فيحملونها إلى بيتها جثة لا حراك فيها ولا وعى ...

ولم يعد المعلم شيكو يتردد إلى بيتها فكان يقول للجيرة راثياً :

— إنه لما يبتعث الأسى أن تدمن هذه العجوز الشراب وهى فى أرذل العمر ، مع أن الخمر تعجل خطواتها إلى القبر !

وفى الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على بساط الثلج صباح عيد الميلاد عقيب سكرة انكليزية أبلت فيها البلاء الحسن ...

وورث المعلم « شيكو » أرضها كما خوله الصك فكان يقول :

— لولم تتلف هذه العجوز البلهاء صحتها بسموم الخمر لعاشت عشر سنين أخر !

(حلب) كمال الحريرى

حاجي بابا الإصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موبر"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادي والعشرون

ميرزا أحمد عند الشاه

لما عاد ميرزا أحمد من عند الشاه في مساء ذلك اليوم استدعاني فوجدته مهتاجاً أشد الاهتياج . ولما وصلت إليه قال : « أدن مني ! أدن مني ! » وقال لي همساً : « هل تعرف يا حاجي بابا أن هذا الطبيب اللعين قد عرف الطريق إلى جلالة الشاه وأنه كان معه في صباح اليوم ؟ لقد تقابل معه دون أن أعلم وأنا الطبيب الخاص لجلالته . وظهر لي أن ثقة الشاه كبيرة به وأنه شكا إليه من أمراضه القديمة المتعددة وهي فقر الدم والربو وعسر الهضم؛ فسأله الطبيب أسئلة كثيرة جاءت كلها مطابقة للواقع في وصف أعراض أمراضه مما جعل الشاه يعجب كل الاعجاب بدقته في تشخيص المرض وبغزارة مادته . ثم طلب أن يمهله جلالته ثلاثة أيام يراجع فيها كتبه . واستدعاني الشاه في المساء وسألني عما أعرفه عن أطباء أوربا وعن رأيي فيما يصفونه من الدواء فلم أتردد في إخبار جلالته برأيي وهو أن هؤلاء القوم ليسوا أهلاً لثقتنا لأنهم يكذبون نبينا ويأتون المنكرات ولا يعرفون الطهارة من النجاسة ويشربون الخمر . وقلت لجلالته إنه إذا أمكن ائتمانهم على شيء فلا يجوز أن يؤتمنوا يا صاحب الجلالة على حياة الملوك الشرقيين . وانظر كيف فعلوا في الهند وكيف أذلوا حكامها . وإني لأرجو يا جلالة الشاه أن يحفظك الله من شر دوائهم فانهم إنما يرسلون الأطباء لخدمة سياستهم »

ولمحت له بأنهم يريدون قتله لاستعمار بلاده وأشرت إلى ما اشتهر من إجرائهم عمليات جراحية لحكام الهند وموت هؤلاء الحكام على أثر العمليات. وقد تمكنت من إقناع جلالته بهذا القول فوعدني بألا يقبل منه دواء ولا يستشيره في أي مرض . وقال إنه سيدعوني إلى مقابلته عند ما يرسل إليه الطبيب الأجنبي الدواء لكي أفحصه وأخبر جلالته عن المواد التي تركب منها »

ثم قال لي ميرزا أحمد : « وبالرغم من هذا القول فانني أعتقد يا حاجي بابا أن جلالة الشاه سيجرب دواء الطبيب الأجنبي وأنه سيجد له أحسن تأثير فكيف يثق بي بعد ذلك ؟ ومن الذي يأتي لعيادتي إذا طردني الشاه ؟ »

فوعدته بأن أفعل كل ما في وسعي لمساعدته ضد هذا الطبيب الكافر

وبعد ثلاثة أيام دعي ميرزا أحمد مرة أخرى لمقابلة الشاه لفحص الدواء الذي قدمه الطبيب الأجنبي إلى جلالته، فتكلم عنه كلاماً غامضاً ختمه بأن هذا الطبيب طبيب سفارة لدولة أجنبية وأن هذا يدل على أن واجبه واجب سياسي قبل كل شيء . واقتنع الشاه بأن يعرض الأمر على مجلس وزرائه .

وفى اليوم التالى عقد مجلس الوزراء كالعادة بمجلس جلالته على العرش وجلس حوله الوزراء وهم على حسب النظام الحكومى فى هذه البلاد : رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الداخلية وأمين الدولة وحاجب الملك ورئيس الحفلات ومدير المركبات الملكية ورئيس الأطباء، ويليهم كبار القواد

وبدأ الشاه خطابه بالتكلم مع رئيس الوزارة عن ذلك الطبيب الأجنبى الذى عرض خدماته على جلالته وقال إن هذا الطبيب حضر اليوم إلى القصر وقدم إليه دواء قال إنه لم يهتد إليه إلا بعد أن قضى ثلاثة أيام كاملة فى مراجعة الكتب الطبية . وأكد أن هذا الدواء أقوى أثراً من كل حجاب وطلسم .

وقال جلالته إنه استدعى رئيس أطبائه واستشاره فى أمر هذا الدواء فأعرب له عن شكه وارتيابه لأنه لا يبعد أن يكون هذا الأجنبى مسخراً من قبل دولته الأجنبية لقضاء مآرب سياسى خصوصاً وهو طبيب سفارة .

قال جلالة الشاه وقد كان يرفع صوته أكثر مما تقضى به ضرورة إسماع الجميع : « وقد رأيت أمام هذه النصيحة أن أجمعكم وأستشيركم لتخبرونى برأيكم ورأيت أن أول عمل يجب أن تعملوه هو أن يتعاطى كل واحد منكم جزءاً من هذا الدواء ليجرب تأثيره فى نفسه قبل أن يشير على برأى فيه »

فهتف رئيس الوزارة وسائر الوزراء بحياة جلالته وبدوام الصحة والعافية له وقالوا إنهم يعدون أنفسهم سعداء إذا ضحوا بأرواحهم من أجل جلالته .

عند ذلك أمر الشاه بإحضار الدواء من غرفته الخاصة فذهب النديم وعاد يحمل الصندوق على طبق من الذهب

فنادى الشاه رئيس أطبائه وأمره بأن يدور به على الوزراء مبتدئاً برئيسهم ثم بمن يليه فى الدرجة . ويقدم لكل منهم جزءاً منه ففعل ذلك وأخذ كل من الموجودين ما ليس به حاجة إليه من الدواء بمقدار الجرعة العادية التى يتعاطاها لو كان مريضاً

وأخذ جلالته يراقب وجه كل منهم ليعرف الأثر الذى انطبع عليه وهو يتعاطى الدواء ثم دار الحديث عن شئون أوربا ، فسأل جلالته الموجودين أسئلة متعددة فأجابه كل منهم جواباً أكثر ألفاظه فى مديح الشاه والدعاء له

وفى هذه الأثناء أخذ تأثير الدواء يظهر شيئاً فشيئاً وكان أسرعهم تأثيراً وزير المالية الذى كان يفتح فمه ليتكلم بشىء فيعييه الكلام وتظهر على وجهه علائم التعب الشديد فاتجهت إليه كل الأنظار ثم ظهر الاصفرار الشديد على وجه أمين الملك وتلاه وزير الداخلية . وأخذت ترتسم على عينيه علائم التوسل والضراعة لكى يأذن له الشاه بترك المجلس

وبعد قليل ظهرت علامات المرض على سائر الموجودين إلا رئيس الوزارة الذى أخذ يسخر فى نفسه من آلامهم

ولما تبين الشاه تأثير الدواء فى جميع وزرائه أمرهم بمغادرة القصر ثم التفت إلى رئيس الأطباء وطلب إليه أن يحدثه عن هذا الدواء فوجد الرجل هذه الفرصة سانحة وأخذ يصف الدواء بشر الأوصاف مرتكناً إلى ما عاينه الشاه من تأثيره السيئ فى وزرائه

قال لى رئيس الأطباء بعد عودته من عند الشاه : « لقد كان سلطانى كبيراً يا حاجى بابا على جلالته

وسترى فى الغد أن ذلك الطبيب الذى أراد أن يضحك منا سيتعلم الخوف بدلا من السخرية . وسيعلم مَن نحن معاشر الفرس . لقد كان يريد عزلى من خدمة الشاه وأن يتولى علاجه بدلى . ولكن من لهذا الأحمق بمن يعلمه أننى خلقت لمعالجة الشاه وأن الشاه خلق لكى أعالجه . إنه يفاخر باختراعاته الحديثة ولكن ما فائدة هذه الاختراعات ؟ هل خلق الله أمراضاً حديثة ؟ إننا نمرض بما كان يمرض به آباؤنا ونعالج بما كانوا يعالجون به وحسبنا ذلك . إننا لن نصف دواء لمريض غير ما كان يصفه ابن سينا لمريض فى مثل حالته

ثم أخذ رئيس الأطباء يستوثق منى لأعينه فى تدابير أخرى على منافسه الطبيب الكافر كيما تبقى له مكانته فى القصر الملكى . ثم أمرنى بالانصراف بعد أن حدثنى بما ضاق به صدره

الفصل الثانى والعشرون

حاجى بابا يتقاضى راتباً من الطبيب

كنت إلى ذلك الوقت أعامل الطبيب الفارسى معاملة الصديق للصديق لا معاملة التابع للمتبوع ، وكان راضياً بهذه المعاملة لأنه كان يسمح لى بالجلوس أمامه وبأن آكل معه وأدخن ولكننى وجدت الاستمرار على هذه الخطة لا يتفق مع ما أرجوه من الكسب ولم أكن قد نلت من ماله غير القطعة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وكانت الظواهر كلها تدل على أنها آخر ما سآخذه منه وإن كانت أول ما أخذته ، فعزمت على أن أكلمه فى الأمر فانتهزت فرصة سروره لانتصاره على الطبيب الأجنبى وأخذت أبث شكايتى إليه

عاد الطبيب فى اليوم التالى من القصر الملكى ويكاد وجهه ينطق فرحاً وسروراً وقال لى : « ما أكرم صاحب الجلالة وما أرق طباعه ! لقد قابلنى اليوم بالبشر والحفاوة وأثنى على مواهبى ولعن الطبيب الأجنبى ودعانى إلى العشاء » فقلت : « ومن فى البلاد الفارسية أكرم من جلالة الشاه ؟ ومن فى أطباء العالم يضارع ميرزا أحمد ؟ إنهم إن أرادوا أن يستفيدوا علماً وحكمة فعليهم أن يأتوا ليستعلموا منك »

عند ذلك بدت على وجه الطبيب المغرور ابتسامة الرضى . وأخذ يفتل شاربيه ويمسح ذقنه وقلت له : « إن شاء الله جعل لى نصيباً من جاهك وشهرتك فانني بجانبك كقطعة من الحجر ملقاة بجانب الورد فمن الذى ينظر إليها » ؟

قال لى الطبيب : « لماذا تتكلم بهذه اللهجة يا حاجى بابا ولماذا تبدى اليأس ؟ » فقلت له : « هل تأذن لى أن أقص عليك قصة تمثل حالى ؟ »

فلما أذن لى قلت : « كان هناك كلب يشبه فى كل أحواله الذئاب حتى أن الذئاب أنفسها كانت تنخدع فيه وتأذن له بالبقاء فى زمرتها وكان يشاركها فى قتل الخراف وأكل لحومها . ولكنه كان يصير مع الكلاب كلباً مثلها . ثم لاحظت الكلاب اختلاطه بالذئاب فنفرت منه . وأدركت الذئاب أنه كلب فصارت تخافه وتتقيه . ورأى الكلب أنه أصبح منفرداً مهجوراً فلا الكلاب تقبله فى زمرتها ولا الذئاب تسمح له بالبقاء بينها ، فعزم عزماً أكيداً على أن يترك تقلبه ويقرر واحدة من اثنتين فاما أن يصير كلباً وإما أن يصير ذئباً — أنا أيها الطبيب مثل هذا الكلب فانك تسمح لى بأن أجلس معك وأدخن وآكل كأنك لست أعلى منى منزلة ، وأنت تستشيرنى وتركن

إلىّ كأنى واحد من أصدقائك . ولكن ليس فى أصدقائك من يكاد يقتله الجوع غيرى . ولست أستفيد من صداقتك كما تستفيد أنت منى؛ فأرجوك إما أن تصرفنى عنك فلا تعود إلى طلبى، وإما أن تجعل لى راتباً؛ فان الشاعر عسكر خان قال لك عنى إنى أريد عملاً أكتسب منه ولم يقل إنى أريد صديقاً »

قال لى الطبيب : « أجعل لك راتبا ؟! أنا لم أعط راتباً قط لواحد من خدمى ولكنهم يأخذون ما يستطيعون : خذ من المرضى الذين يأتون لعيادتى كما يفعلون . ولكننى أعطى كل واحد من أتباعى ثوباً جديداً فى عيد النوروز فماذا تريد منى أكثر من ذلك » ؟

وفى هذه اللحظة جاء رسول من قبل الملك يحمل هدية إلى الطبيب فوقف الطبيب وقفة الذى أصيب بالنشنج وهتف بحياة الشاه . ثم أخرج من جيبه قرشين (القرش عند الفرس يعادل نصف ريال مصرى) وأعطاها لحامل الهدية فرفض أن يأخذهما بعزة وإباء، ودفع طومانا فرفضه كذلك، ولم يزل يزيده حتى عرض خمسة طومانات فقبلها وخرج غير شاكر لأن من حق الرسول الذى يحمل هدية أن يأخذ لنفسه مقداراً من المال قد يكون أكبر قيمة من الهدية نفسها

ولما ابتعد ذلك الرسول استولى الغضب على الطبيب فقال كلمات لو بلغت سمع الشاه لأذاقه الويل

وكان مما قاله : « أهدية هذه ؟ إنها لا تليق بمرسلها ولا بمن أرسلت إليه . انظر ياأخى ماذا بعث به الشاه ! إنه بعث إلى بطبق من الطعام فمن الذى أخبر جلالته أنى جائع ؟ إن قيمة الهدية لا تعدل فعل هذا ما دفعته لرسوله . جزاء ؟ هل هذه مكافأتى؟ لقد صدق السعدى حين قال : « لا تثقوا بصداقة الملوك ولا بأصوات الأطفال، فان صداقة الملك تتغير بين يوم ويوم ، وصوت الطفل يتغير بين ليلة وليلة»

وهنا تنبه الرجل إلى أنه قال ما ليس ينبغى أن يقال . وغلب خوفه من أن يجلد على حزنه على ضياع الطومانات فسكت مقطباً

ووجدت أن الفرصة ليست سانحة لاستئناف الحديث الذى تتكلم فيه فأجلته إلى فرصة أخرى واكتفيت بألا أكون كلباً ولا دبّاً

الفصل الثالث والعشرون

مماحى بابا يحب

زاد سخطى على حاضرى وشكى فى مستقبلى، وكانت أيامى ولياليى تنقضى بلا عمل، ولم تبق بنفسى رغبة فى تعلم صناعة الطب، ورأيت أملى فى ميرزا احمد يضعف شيئاً فشيئاً حتى عزمت على تركه لولا مصادفة لم تكن منتظرة أرجعتنى عن هذا العزم

وكانت هذه المصادفة أننى رأيت فتاة فاستولى حبها على قلبى حتى صرت أعتقد أن «المجنون» فى أشد حالات جنونه لم يكن أكثر تعلقاً بليلاه منى بتلك الفتاة

مضى الربيع وجانب من فصل الصيف ودفعت الحرارة أكثر الناس إلى ترك مساكنهم فى داخل الدور وفرش السجاجيد فوق الأسطحة ليناموا عليها؛ وكنت أكره أن أقضى الليل مع الخدم والطباخ، وهم ينامون عادة بغرفة فى الدور الأرضى فنمت فى شرفة تطل على الجزء الداخلى من منزل الطبيب وهو الذى تقيم فيه السيدات

كان الجزء الذى تطل عليه هذه الشرفة حديقة

حولها غرف تكاد تكون منفصلة عن سائر المنزل يدعونها « مسكن الحرم » وكان مغروساً فى هذه الحديقة أنواع الفاكهة والورد والياسمين، وكان لأسقف هذه الغرف حواف ممتدة تظلل جزءاً كالاطار حول هذه الحديقة، وفى هذه الظلال كان يجلس من فى المنزل من السيدات على سجاجيد فارسية بديعة الصنع مغروشة فوق إفريز خشبى مربع أمام أبواب الغرف

وكنت قد رأيت عدداً من سيدات القصر ولكن ليس فيهن مثل التى رأيتها أخيراً، ولو كنت أعرف أن فيهن مثلها لتجنبت النظر إلى مكانهن حتى لا أقع فى حبائل عينيها الساحرتين

وكان من سوء حظى أنهن رأينى وأنا أطل عليهن فى اليوم الذى وقع نظرى فيه على الفاتنة فصرخن وزجرننى ولقبننى بأقبح الألقاب وأقساها، ولكننى بعد هذه المرة لم أكف عن الاطلال عليهن وصرت أكثر حذراً من أن يرينى كذلك وهن مجتمعات

وكانت الفتاة التى ملكت على قلبى مشاعره طويلة الشعر تنسدل على جبينها خصل منه وتخفى بعض وجهها فى حين أن الأعين التى تراها شديدة الظمأ إلى التحلى بكل جزء من محاسنه

وكانت يداها صغيرتين مخضوبتين بالحناء وقدماها كذلك، فقد رأيتها وهى فى منزلها تمشى حافية. وظللت أنظر إليها حتى فقدت سيطرتى على نفسى لما استولى على من الاعجاب فتحركت حركة نبهتها فنظرت إلى ووضعت النقاب على وجهها فرأيت أجمل صورة يمكن أن يتصورها إنسان ثم قالت بلهجة رقيقة وأدب بارع : « لماذا تنظر ؟ أليس هذا عيباً ؟ »

فقلت : « أستحلفك بحق الحسين ألا تطردينى. إن الحب ليس جريمة وإن عينيك سحرتا قلبى. بحق أمك التى حملتك ارفعى النقاب عن وجهك لأنظر إليه مرة أخرى »

قالت بلهجة أرق من الأولى وبصوت أعذب : لماذا تستحلفنى على ذلك ؟ أليس من المحرم على السيدات أن يكشفن وجوههن أمام الرجال الأجانب؟ إنك لست أباً ولا أخاً ولا زوجاً ولست أعرفك . ألا تخجل من مخاطبة أجنبية عنك ؟ »

وفى هذه اللحظة وقع نقابها كأنما كان وقوعه مصادفة ورأيت وجهها أجمل من قبل، وكانت عيناها سوداوين واسعتين وأهدابها طويلة . وكان حاجباها مقوسين تقويساً بديعاً متصلين فوق الأنف اتصالاً مغرياً فاتناً .

وكان أنفها أقنى صغيراً ، وفمها ضيقا رقيق الشفتين عليهما بتسامة عذبة، وفى وسط ذقنها « غمازة » لطيفة ، ولم أر فى حياتى شيئاً أجمل من شعرها الأسود وغدائرها الطويلة المنسدلة على ظهرها ؛ وقد كانت فى الجملة مثالا للجمال والرقة . وفهمت عند رؤيتها أشياء كثيرة كنت قد قرأتها ولكنى لم أفهمها من قصائد الشعراء، وعرفت أننى أستطيع أن أنظر إلى وجهها إلى الأبد دون أن أشعر بشىء من الملل . ولكن نشأ بنفسى شعور قوى يدفعنى إلى تسلق الجدار ولمس جسدها الغض ، وكدت أفعل ذلك لولا أن سمعت صوتاً ينادى باسم (زينب) وكان هذا الصوت عالياً حاداً كرره قائله دلالة على فقدان صبره ، فذهبت ، وبقيت فى مكانى مدة طويلة منتظراً عودتها، وأصغيت علنى أسمع صوتها وهى تكلم من كان ينادى بها ، وقد ظهر لى أن هذا الصوت هو صوت زوجة الطبيب التى لم تكن من السيدات

الراقيات الرقيقات . وتمكنت من إخضاع زوجها لها كل الخضوع .

وانتهى النهار وكنت على وشك العودة إلى فراشي فسمعت صوت تلك الزوجة ينادي : « يا زينب ! يا زينب! إلى أين تذهبين؟ لماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟ »

ثم سمعت صوت الفتاة يجيبها، ورأيتها بعد ذلك تدخل الغرفة التي كانت بها في أثناء النهار ولكنها لسوء الحظ لم تمكث طويلاً حتى أمتع عيني برؤيتها بل أخذت سلة كان فيها بعض الفواكه التي جمعتها من الحديقة وخرجت من الغرفة وقالت لي بصوت خافت وهي تغادر الغرفة : « تعال في مساء الغد » فجرت عذوبة صوتها في دمائي وشعرت بإحساس لم أشعر به من قبل واهتزت أو صالي كما تهتز أو صال المحموم، وذهبت بعد ذلك إلى فراشي فساورتني الحمى إلى أن طالعتني الشمس في الصباح

الفصل الرابع والعشرون

حامي بابا يقابل زينب

عرفت في النهاية أنني وقعت في حبائل الحب وقلت في نفسي : « سأعرف الليلة من هي التي أحبها، وإذا كانت من أسرة الطبيب فليهدم منزله على رأسه إذا أنا لم أعلم كيف يكون شديد الرقابة على أهل ذلك المنزل

أما من حيث زواجي بها فان ذلك أمر لا يخطر بالبال . ومن ذا الذي يرضى أن يزوجني ؟ إنني لا أملك ما أشتري به حذاء فكيف أحصل على تكاليف الزواج ؟ ولكن إن شاء الله فسأصبح قادراً على الزواج في يوم من الأيام . ومن هذا الوقت إلى أن يرزقني الله مالا فسأمتع نفسي بلذات الحب، وإذا اقتضى الأمر تحمل غرامم فليتحمله الطبيب بالنيابة عني .

وقبيل الموعد لبست ثيابي وتأنقت أكثر من العادة ورجلت شعري بعناية شديدة وأتقنت ربطة الحزام وأملت عمامتي إلى جانب رأسي وخرجت من البيت قاصداً الحمام .

وبعد الاستحمام تمطرت وقضيت جانباً كبيراً من وقتي في الغناء ومشيت في المدينة بلا قصد غير قطع الوقت حتى يحين الموعد

وأخيراً انتهي النهار وكان صبري يقل شيئاً فشيئاً ، وكان من سوء حظي أن الطبيب تأخر عند الشاه، ومن أجل ذلك لم ينم الخدم مبكرين كعادتهم فقد كانوا مضطرين إلى انتظاره حتى يفرغ من طعامه لكي يتعشوا بفضلات مائدته . ولهذا السبب لم أستطع الذهاب إلى زينب في الموعد المحدد

ولما هدأت أنفاس النائمين وسطع نور البدر ذهبت إلى النافذة وكان معين الصبر قد غاض . ولما استوثقت من أنه لن يراني أحد أطللت من النافذة فرأيت بها أوراق التبغ الخضراء وإلى جانبها سلة بها جزء مرتب من هذه الأوراق وسائرها غير مرتب في الغرفة فعرفت أن زينب كانت ترتبها ولكنها لم تتم عملها

درت بعيني في أرجاء الغرفة فلم أجد الفتاة وتنحنحت مرتين فلم أسمع جواباً ثم سمعت زوجة الطبيب تتكلم همساً ولكن حدة صوتها جعلته يخترق الحوائط ويصل إلى مسمعي، ولم أتبين في مبدأ الأمر موضوع الحديث ولكنني في النهاية سمعتها تقول بصوت واضح : أتتكلمين عن الشغل يا بنت

الشيطان ؟ لماذا ذهبت إلى الحمام ؟ أى شأن لك فى المقابر ؟ لماذا لم يتم عملك ؟ لا تأكلى الليلة ولا تشربى ولا تنامى حتى يتم . إذهبى فى الحال وإذا لم تتممه فوالله وبالله لأضربنك على قدميك حتى تسقط أظافرك »

وبعد ذلك سمعت صوت لطمات فعرفت أن زوجة الطبيب هى التى كانت تكلمها . وبعد قليل رأيت فاتنتى تدخل الغرفة مطرقة مكسورة الخاطر . ولقد كنت أتمنى أن أراها فى هذه اللحظة فى أسعد الحالات وأرغدها

قلت فى نفسي : « ما أعجب الحب ! إنه يشحذ الذهن ويقوى الذكاء . ونظرت فى الغرفة فأدركت أن بها مكاناً أستطيع الاختباء فيه ومساعدتها فى العمل حتى يتم وأستطيع أن أقضى الليلة معها دون أن يشعر بنا أحد . ورأتنى الفتاة مطلاً من النافذة فلم تظهر أنها اهتمت حتى تهدأ العاصفة التى أثارتها السيدة . ثم لما ساد السكون بعد مدة دنت من النافذة ، وبعد لحظة كنت معها فى داخل الغرفة

ولست أشك فى أن الذين جربوا الحب من القراء يقدرون اضطرابنا فى هذا الموقف الذى لا يمكن وصفه

وعلمت من فتاتى أنها بنت زعيم من زعماء الأكراد وأن أباها سجن وهى لا تزال طفلة وأن سوء حظها جعلها جارية فى هذا المنزل . وبعد أن تبادلنا وصف ما يشعر به كلانا نحو الآخر أخذت تبثنى ما تجده من سوء معاملة السيدة ، وقالت لى إنها تشعر بأنها فى هذا المنزل أذل من الكلاب ، فكل إنسان يسخر بها حتى مائت نفسها ، وأن الاسم الوحيد الذى تنادي به بينهم هو بنت الشيطان . وقالت :

« أنا كردية من اليزيديين والناس يزعمون أننا نعبد الشيطان ، ولكن الحقيقة ليست كذلك وإنما نحن نخاف الشيطان ، وأى إنسان لا يخافه ؟ إننى أود أن أرى تلك السيدة بين الجبال لكي أريها ماذا تستطيع الفتاة الكردية أن تفعل »

حاولت بكل قوتى أن أعزيها وأن أقنعها بالصبر حتى تتهيأ لها فرصة للانتقام ، فقالت لى إنها يائسة من سنوح الفرصة لأنها مراقبة أشد المراقبة وأنها لا تكاد تنتقل من غرفة إلى أخرى إلا بإذن سيدتها

وقالت لى : إن هذه السيدة كانت من جوارى الشاه وإن الطبيب تزوجها بأمر من جلالته واضطر بتأثيرها إلى ترك زوجته الأولى ، وأن هذا الطبيب من أسرة وضيعة وأنه يعانى آلاماً شديدة من سوء أخلاقها وشدة كبريائها كأنما كانت تعد نفسها فى ماضيها سيدة من سيدات القصر الملكى لا جارية من جواريه ، وأنها لا تفرق فى المعاملة بين زوجها وبين الحيوان وتطالبه بالخضوع والتسليم فى كل شىء . وأن الطبيب لا يجرؤ على الجلوس أمامها حتى تأذن له ، وهى فضلاعن ذلك شديدة الغيرة ترتاب فى علاقة زوجها بكل جارية ، وأن الطبيب يغافل زوجته ويستثمر الضعف الانسانى فيقضى وطره من كل خادمة جميلة

وقالت لى زينب إنها هى نفسها موضع حبه وإعجابه وإن سيدتها لذلك تغار منها ولا تتركها تتحرك أقل حركة دون أن تراقبها أشد المراقبة ، وقالت لي إن جو البيوت التى وصفها كهذا الوصف جو دسائس

ولما كنت لا أعرف من نظام البيوت الفارسية إلا ما علق بذهنى من ذكريات منزلى وقد فارقته وأنا صغير — فقد كنت أصغى إلى الفتاة فى اهتمام

شديد ، وكان مما قالته أن الحرم في هذا المنزل يتكون من خمس سيدات غير زوجة الطبيب وهن : شيرين الرفيقة الشركسية ، ونور جيهان (نور العالم) الرفيقة الحبشية ، وفاطمة جارية المطبخ ، وليلى خادمة الايوان ، وزينب وصيفة السيدة ، واسم هذه السيدة هانم

وعمل الوصيفة أن تصنع لها القهوة وتعد النرجيلة وتذهب معها إلى الحمام وتساعدها على لبس الثياب ؛ وأما شيرين الشركسية فهي أمينة المنزل وهي تعنى بثياب السيد والسيدة وسائر الأتباع وتحفظ حاجة المنزل في العام من القمح وسائر المؤونة وفي عهدتها نفقات المطبخ وأدوات الزينة

أما نور جيهان فهي فراشة البيت وهي تنظف السجاجيد وتكنس السلم وتساعد الطباخة وتحمل الطعام وتفعل ما يأمرها بها كل من في المنزل

أما ليلى فانها عجوز تشتري ما يلزم من السوق وتحمل رسائل السيدة إلى صواحبها وتتجسس لها على السيد

قالت زينب : « ونحن نقضي أيامنا في الخلاف بيننا على كل شيء ، وكل اثنتين منا تتحالفان على الأخريات . والخصومة الآن شديدة بيني وبين الشركسية لأنها وجدت في العهد الأخير عناية السيد تنصرف عنها إلي ، ويظهر أنها تدس لي الدسائس عند السيدة لأني أجد السيدة كلما أساءت إلي أحسنت إليها ، وهذه الفتاة شديدة الغيرة مني وقد أحضرت في العهد الأخير حجاباً من أحد الدراويش . ولما رأيت حسن تأثير الحجاب أحضرت حجاباً من درويش آخر لكي يرزقني الله زوجاً صالحاً . ولم أكد أحمل هذا الحجاب ومين حتى رأيتك تطل على من النافذة فعرفت أن الله قد استجاب دعوتي . وأنا الآن على اتفاق مع نور جيهان الحبشية وقد أخبرتني بأن شيرين تدبر لي مكيدة عظيمة ولذلك أحتاط كل الاحتياط من كل ماء أو طعام أعرف أن يدها امتدت إليه خوفاً من أن تضع لي السم فيه . وقد أرادت أن تبدأني بالشر في هذا الصباح فقالت لي : « لعنة الله على الشيطان » وهذه العبارة إهانة عظيمة للزيديين ففضبت وأمسكت بشعرها فانتزعت خصلة منه ، وأخذنا نتشاتم حتى جفت حلوقنا ولست أعرف ماذا تكون نتيجة هذا الشجار عند ما يعلم سيدي الطبيب »

استمرت زينب تحدثني هذا الحديث حتى انبلج الفجر وسمعت صوت المؤذن فاستعددت للخروج واتعدنا على أن نتقابل كلما سنحت فرصة وجعلنا العلامة بيننا على إمكان المقابلة أن تعلق قطعة من القماش على شجرة فأعرف أنها مستعدة لمقابلتي

الفصل الخامس والعشرون

الحجاب يلتقيانه مرة أخرى

في مساء اليوم التالي ذهبت إلى الشرفة وأطللت على حديقة الحرم آملا أن أرى قطعة قماش معلقة على شجرة ، فلم أرها ولم أسمع صوت زوجة الطبيب ذلك الصوت الذي أصبحت أتفاءل به . ولم أجد في الغرفة سلة التبغ ولم يكن في المنزل علامة على أنه مأهول غير وجود ليلى

وبقيت في مكاني حتى دق الجنود طبولهم ليغلق الباعة حوانيتهم وينصرفوا إلى منازلهم . وكان الصمت سائداً في كل مكان

قلت في نفسي : « لا أظن أن سيدات المنزل في الحمام لأن الساعة كانت متأخرة فلعلهن في حفلة زواج أو عند أسرة يكون أحد أفرادها مريضاً ، وصرت أعصر ذهني لأفترض الفروض حتى سمعت فجأة صوت الباب يفتح ، وتلت هذا الصوت أصوات

نسائية فعزمت على البقاء لعلى أنعم منها بحديث مثل حديث الأمس

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت زينب ومشت تحوى على أطراف الأنامل لتخبرنى أن الظروف لا تسمح بمقابلتها الليلة ولكنها ستنتهز فرصة قريبة لتدعونى إلى مقابلة أخرى ، وأخبرتنى أن سيدتها ذهبت إلى القصر الملكى بأمر من الشاه لتعنى بسيدة مريضة فيه ، وأن المظنون فى مرضها أنه نتيجة لدس السم لها فى الطعام من سيدة أخرى فى القصر

وقالت لى زينب : « إنه لا ينتظر أن تعيش تلك السيدة ولذلك فنحن نستعد لاقامة المأتم وستهدى إلى كل واحدة مناثياب ومناديل سوداء » ثم ودعتنى وأكدت على ألا أنسى العلامة المتفق عليها بيننا

وفى الصباح التالى وجدت زينب تنظر من النافذة وتشير إلىّ بالدنو منها فدنوت غير متردد ودخلت غرفتها كما دخلت فى المرة السالفة وقد تملكنى الخوف فى هذه المرة ، وكدت أهم بالعودة لولا تشجيع الفتاة لى بابتسامة ، وقالت لى : « لا تخش ياحاجى بابا فليس هنا أحد غير حبيبتك زينب وإذا لم يعاكسنا الحظ فسنبقى معاً طول النهار »

فقلت : « ولكن ما هذه المصادفة العجيبة ، أين سائر السيدات وأين الطبيب ؟ »

قالت : « لا تخش شيئاً فانى أغلقت جميع الأبواب وإذا جاء أحد فسيكون لديك متسع من الوقت للفرار قبل أن أفتح له الباب وقد ذهب جميع السيدات إلى المأتم ، وقد دبرت السيدة الشديدة الغيرة أمراً لابعاد الطبيب حتى لا يأتى إلى المنزل فى غيبتها وأنا موجودة فيه »

وقالت : « يجب أن تفهم يا حاجى بابا أن نجم حظنا من أسعد النجوم وأن الساعة التى التقينا فيها كانت ساعة مباركة . وقد خدمتنى شيرين الشركسية من حيث لا تعرف لأنها أرادت منى من دخول القصر الملكى حتى لا أنال المنحة التى يعطونها فى العادة لمن يحضر المآتم من الناديات ، فأفهمت السيدة أنى لا أحسن الندب وأنه لا فائدة من وجودى فى المأتم . وأنى فضلاً عن ذلك لا أعرف عوائد الايرانيين لأنى كردية فوجودى فى الأوساط الراقية يجعلنى وسيدتى منتقدتين . وأفهمتها أن ليلى خير من تقوم بواجبها فى المآتم فحثتها على مرافقتها . وعلى هذا ذهب الجميع إلى المأتم وبقيت وحدى فى المنزل لحسن حظى حتى أتمكن من رؤيتك . ولكننى تظاهرت بالغضب وعارضت فى ذهاب ليلى من حيث كان الواجب أن أذهب »

ثم خرجت زينب لتعدل طعام الاطفار وتركتنى أهتدى بنفسى إلى داخلية الحرم فذهبت أولا إلى غرفة « الهاتم » ووجدتها غرفة واسعة وقد غطى بابها الذى على الحديقة بستار رقيق وفى صدرها نمرقة عليها سجادة سميكة مطوية طيتين ، وتحت هذه النمرقة وسادة مربعة عالية مغطاة بالحرير المزركش بالذهب ، وبالقرب من النمرقة مرآة فى إطار مزركش وأمامها أدوات الزينة من المكحلة إلى المرود إلى الخضاب والمقص وغير ذلك ، وبين هذه الأشياء إناء صغير به أحجبة متعددة .

وفى جانب من الغرفة سرير عليه ملاءة زرقاء وعلى الحوائط صور كثيرة فى إطارات مختلفة الأشكال والألوان وفى أحد الأركان زجاجة كبيرة من النبيذ الشيرازى

قلت فى نفسى : « كيف يدعى هذا الطبيب الصلاح والتقوى مع وجود الخمر فى منزله ؟ »

وعزمت أن أتخذ هذا العيب الذى عرفته عنه

سلاحاً أحاربه به عند الضرورة

وقبل أن أعين سائر الغرف عادت زينب بطعام الافطار واخترنا غرفة السيدة مكاناً لتناول طعامنا . ولم أتناول قط فى حياتى ألذ من هذا الطعام وهو مكون من طبق من الأرز ولحم مشوى وقاورمة فارسية مقسمة إلى أجزاء مستطيلة كنا نتبلغ بها فى أثناء الطعام كعادة الفارسيين ، وطبق من العجة وآخر من الجبن ، وخوخ ومشمش وأنواع من الحلوى والعسل

قلت لها : « خبرينى بحق أمك عليك كيف تمكنت من إعداد هذا كله فى هـذه المدة اليسيرة ؟ إن الطعام يصلح لمائدة الشاه »

فقالت : « لا تظن أنى أحضرت ذلك الآن فان السيدة أمرت قبل ذهابها باعداد الطعام فأعد هذا الافطار ثم غيرت رأيها وفضلت أن تأكل فى بيت الشاه فتركته »

فما كدنا ما طاب لنا وتركنا قليلاً لمن عسى أن يسأل عنه من خدم المنزل . وبعد أن غسلنا أيدينا جاءت زينب بزجاجة النبيذ وكسرنا كأساً ليكون ذلك عهداً بيننا على دوام الحب وهنأ كل منا الآخر بأنه أصبح أسعد الناس . واستولت على نشوة الحب فرفعت عقيرتى وغنيت أبياتاً رقيقة من شعر حافظ الشيرازى فأقسمت لي زينب وهى منتشية نشوتين أنها لم تسمع قط صوتاً أطرب من صوتى . ونسيت لشدة سرورها أنها ليست إلا جارية رقيقة ، ونسيت لشدة سرورى أنى فقير ، وصورت لهـا الخمر كما صورت لى أن سعادتنا دائمة أبدية ، وغنت ثم غنيت كل منا بدوره والخمر فضاحة الأسرار كما يقولون فطلبت إلى زينب أن تقص علىّ تاريخها فلم تمتنع مما طلبت وأخذت تقص علىّ قصتها منذ البداية .

الفصل السادس والعشرون

قصة زينب الكردية

قالت : « أنا بنت زعيم كردى يدعى أوخوس أغا ولست أعرف من هى أمى ولكننى نشأت فى منزل أبى بين نساء كثيرات لم تشعرنى واحدة منهن بعطف خاص يدل على أنها الأم . ولكننى لما كبرت سمعت أن أمى كانت غريبة وأنها ماتت فى صغرى

وكان أبي مولعاً بالخيل حتى أن أول شىء أذكره في طفولتى هو موت مهر له وإقامته مأتماً له

وأنت تعرف أن الأكراد لا يعترفون بأية سلطة أو سيادة عليهم ، وقد كان أبى كسائر الأكراد لا يحترم الدولة العثمانية ، ولذلك اغتصب قطعة كبيرة من الأرض مملوكة لباشا بغداد وجعلها مرعى لمواشيه وغنمه ؛ وكان يكلف القبائل المجاورة أن تقدم لمواشيه المؤونة فكانت تخضع مكرهة خوفاً من سطوته وإحراقه زرعها أو تسميمه المواشى

وكان الباشا يتقى شره ، فبدلا من أن يغنمه أو يحاربه كان يتودد إليه ويرسل إليه الهدايا ويتغاضى عن كل إساءاته

وكان أبى طويل القامة عريض الكتفين تبعث هيئته على الهيبة والخوف ، وقد قتل أشخاصاً عديدين ومن أجل ذلك كان يعلق خصلاً كثيرة من الشعر على أعلى رمحه لأن من عادة الفرسان التركمانيين أن يقطع أحدهم خصلة من شعر كل قتيل يقتله فيعلقها على رمحه وأنا إن نسيت شيئاً فلست أنسى الجلالة والعظمة المرتسمتين على وجهه عند ما يكون ممتطياً جواده بين ألف من أتباعه الخاضعين له أتم الخضوع والذين تتوهج أسنتهم وسيوفهم فى ضوء الشمس كلما هموا بغزوة

وكان أبى رجلا يقدر الأمور حق قدرها ، ويعمد إلى الحكمة بالرغم من استطاعته تنفيذ كل

الذى يريده بالقوة . ومن أجل ذلك لم يزدر صداقة الباشا بل أراد الانتفاع بها . كذلك كان الباشا حكيما فلم تخف عليه هذه الرغبة عند أبي وصار يستعين به فى تأديب القبائل

وحدث فى ذلك الوقت أن جماعة من الوهابيين ثاروا على الحدود فاستعان الباشا بأبي على تأديبهم واشتركت جيوش الحكومة مع جيش الأكراد فى هذه الحملة، وقدتمكن أبي من قتل الزعيم الوهابي بيده فى أثناء المعركة

وأخذ أبي جواد الزعيم الوهابى فأرسله إلى معسكر الأكراد ، ولقد كان هذا الجواد عربياً أصيلا يحسد مالكه عليه ، ولو علم الباشا به ما تركه لأبي بأى حال من الأحوال

وأخيراً تقهقر جيش الوهابيين المغلوب وعاد الأكراد إلى الجبال ، وفى يوم من الأيام فوجئنا بزيارة مندوب من قبل الباشا ومعه عشرة من الجنود مدججون بالسلاح. وكان هذا المندوب هو المرياخور فأكرمه أبي وأدى له جنودنا التحية ثم أخذت جياد المندوبين إلى المرعى وذبحت الذبائح وقدم لهم الطعام. وبالجملة فقد بذلنا كل ما يستطيع بذله من واجب الضيافة أناس مثلنا من الرحل القاطنين في الخيام

وقد أدرك أبي منذ رأى ضيوفه مقبلين كنه المهمة التى جاءوا من أجلها ، وأمر ابنه بأن يأخذ الجواد الذي كان للزعيم الوهابي إلى جهة مجاورة حتى يصدر إليه أمر آخر

ولما كانت جهاتنا جبلية فقد كان من السهل على أى رجل أن ينتقل من مكان إلى مكان دون أن يشعر به الموجودون معه . وإنى لأذكر الحوادث التى سأذكرها لك كما لو كانت حدثت بالأمس فقط

كنت أطل على المكان الذى اجتمع فيه المرياخور وأبي واثنان من الأتراك الموفدين من قبل الباشا، وكان هؤلاء الضيوف جالسين فى صدر الخيمة وأبي أمامهم جالس جلسة تدل على إكبارهم وتواضعه فى حضرتهم

قال أبي: «مرحباً بكم ! أسعدتمونا بتشريفكم»

فقال المرياخور : « لقد كان من حسن حظى أننى انتدبت لمقابلتك فانى مشتاق إليك وقد مضى زمن طويل على آخر مرة تلاقينا فيها »

وأخذا يتبادلان مثل هذه التحايا وكان كل من بالخيمة يدخنون فى هذه الأثناء حتى امتلأت الخيمة بالدخان

ثم قال المرياخور : « إن مولاى الباشا أرسلنى إليك لأبلغك تحيته وأقول لك إنه يحبك ويقدرك وإنه يعدك من أقدم أصدقائه وإنه يحب الأكراد ويصادق أصدقاءهم ويعادى أعداءهم »

فقال أبي : « أبلغ الباشا أنى لست إلا عبداً من عبيده، وأنه قد شرفنى أكثر مما أستحق، وإنى أحمد الله على المودة التى عقدت بينى وبينكم. إننا نعيش فى أمن مستظلين بظل الباشا وقد أصبحنا لا نعرف الخوف »

وبعد لحظة ساد فيها السكوت قال المرياخور : « الغرض من زيارتنا يا أوخوس أغا هو إبلاغك أن الوهابيين أرسلوا إلى الباشا يطالبونه برد الجواد الذى كان يركبه زعيمهم الذى قتل فى الحرب وأنهم لا يقبلون فداء غير رأس الباشا أو ابنه لأنهم يزعمون أن هذا الجواد من نسل الجواد الذى هاجر به النبى من مكة إلى المدينة . وقد قال رسل الوهابيين إنهم جمعوا جيشاً وسيحاربون حتى يرد إليهم جوادهم أو يهلكوا عن بكرة أبيهم. ويقول لك الباشا إن الناس كلهم علموا بوجود هذا الجواد عندك وإنه يريد أن يرد لهم الجواد ومن أجل ذلك أرسلنى إليك راجياً أن تسلمه إلى »

فقال أبي : « والله وبالله وبحق الخبز والملح الذى أكلته مع الباشا لقد كذب الوهابيون وليس عندى الجواد الذى يريدونه ، وكل ما فى الأمر أنى غنمت

جواداً مريضاً غير أصيل فبعته لأحد الأعراب فى اليوم التالى لحدوث الوقعة ولا يزال عندى سرج هذا الجواد ولجامه ، وأنا مستعد لاعطائهما لك . أما الجواد نفسه فليس عندى »

قال المرياخور : « الله الله ! هذا أمر كبير الأهمية يا أوخوس أغا وأنت رجل محترم ونحن أناس محترمون فلا تحاول الضحك على ذقوننا ، وإذا لم تأت بالجواد لنرده إليهم فانهم سيحاربوننا حرباً تموت فيها كل جيادنا وستنتهى الصداقة التى بينك وبين الباشا فأستحلفك برأس أبيك أن تأتى بالجواد ولا تعرضنا ونفسك لحرب مهلكة »

قال أبى : « أيها الصديق ما الذي أقوله لك ؟ إن الجواد ليس عندى ، وإن الوهابيين كاذبون ، ولم أقل لك غير الصدق »

ثم دنا من المرياخور وأخذ يتكلم معه همساً فلم أسمع حديثهما ولكننى وجدتهما متفقين فى نهاية هذا الحديث وقال المرياخور بصوت عال: « إذا كان الأمر كذلك ولم يكن الجواد لديك فان الله كريم والمرء لا يستطيع أن يغالب الأقدار وعلينا أن نعود إلى بغداد »

وقف أبي ثم خرج تاركا ضيوفه يدخنون ويشربون القهوة . وجاء إلى خيمة السيدات فأمر بالطعام الذى كان يعد فى ذلك الوقت لضيوفه وأخذ من إحدى نسائه كيساً فيه نقود ذهبية فوضعه فى حزامه ثم عاد إلى ضيوفه

ولم يدر حديث طويل في وقت الغداء ولكنهم كانوا يتكلمون قليلا عن الخيول والكلاب والأسلحة

وكان الطعام طبقاً كبيراً من الحساء وقصعة بها أرز وثريد وحمل مشوى . وكان عدد الجالسين على المائدة خمسة عشر وهم رئيس الوفد التركى وأتباعه العشرة وأبى وثلاثة من أتباعه

وكان فى يد كل منهم ملعقة خشبية، وما هى غير دقائق حتى نفد الطعام لأن الجميع كانوا يأكلون بشهوة قوية . ثم جىء بقصعة من الأرز فالتهموها بأصابعهم وقال كل منهم : « الله بركات فارسن » أى أسأل الله أن يديم نعماءه

ثم خرج أبى مع المرياخور من الخيمة وتكلما بصوت خافت ولكن لقربهما من الخيمة التى كنت أنا فيها ولانصاتى الشديد تمكنت من سماع ما دار بينهما من الحديث

قال أبى: « إن كل ما أستطيع أن أدفعه لك هو عشرة جنيهات ويالليتنى كنت أملك أكثر من ذلك »

فقال المرياخور : « هذا مستحيل وأنت تعرف ماذا سيكون إذا لم تدفع لى ضعف هذا المبلغ . إن الباشا سيأمرنى بالعودة للقبض عليك لعدم حصولى على الجواد. بل هو قد أمرنى بألا أعود إلا بالجواد أو بك، ولكن إذا دفعت لى عشرين جنيهاً فانى سأسهل الأمر عليك وأنجيك . فاختر يا صاحبى لنفسك ما تراه »

فأخرج أبى كيس النقود من حزامه ودفع له عشرين جنيهاً فأخذها المرياخور وأظهر علائم الرضى وقال لأبي : « لقد أكلنا الآن خبزاً وملحاً فنحن أصدقاء ووجب علىّ أن أتدخل إذا أراد الباشا سوءاً بك ولكننى أشير عليك بأن ترسل إليه هدية وإلا صعب على التوسط عنده »

فقال أبى : « أهدى إليه هدية تليق به على العين والرأس فان لى كلباً ذاعت شهرته في كردستان يلحق بالوعل السريع ويندر وجود مثله عند الملوك فهل يقبل هذه الهدية ؟ »

فقال : « إنها تليق من وجهة واحدة ولكنها لا تكفى إذ يجب أن تذكر ما ينشأ عن رضى الباشا عنك »

فأجاب أبى : « إذن لقد خطر ببالى خاطر هو أن أرسل إليه بنتي ذات الوجه المشرق الوضاء

والقوام الأهيف البض والخصر النحيل ، الملتهب قلبها بحرارة الشباب ، فقل له ولو أنه يرى أن اليزيديين غير مؤمنين إلا أنه قد يهوى امتلاك جميلة تغار منها حور الجنة ، وأنا على استعداد لارسالها معك »

فصفق المرياخور بيديه من فرط سروره وقال : « عفارم ! عفارم ! لقد أصبت وأحسنت وسأعرض الهبة وسيقبلها ولا شك وسيكون لك منها صديق فى قصر الباشا تعتمد عليه وينجدك فى الأزمات ويقيك شر ما تخاف »

وعلى ذلك اتفقا . وأما أنا فقد تركت مكاني الذي كنت أنصت منه لأفكر فيما سيكون من مصيرى ، وقد ملت أولاً إلى البكاء وندبت سوء حظى . ولكننى بعد قليل من التأمل والتفكير قلت : « هل أكون زوجة الباشا؟ هل ألبس الحرير وأحمل فى المحفات؟ إن سرورى بذلك لا يقدر وسيغبطنى كل بنات الجبال »

وبعد قليل من الزمن كنت أنظر من الخيام إلى الفضاء الفسيح فأرى المرياخور فى أحسن حلة ومعه أتباعه وكلبه وهم يسيرون إزاء سلسلة التلال التى تحيط بمعسكرنا ، وسمعت والدى يبدى شكره وامتنانه لأنه تخلص من هؤلاء الزائرين . ولما غاب القوم عن النظر أرسل والدى أحد رعاة غنمه إلى ابنه بالجبل يأمره بارجاع الجواد . ولما أمن على الجواد فى الخيام جمع رجال قبيلته المسنين من أقاربه وأقرباء زوجته والنازلين بجوارنا وشرح لهم الحالة التى أصبح فيها ، وبين لهم أن هلاكه وهلاكهم محتمان إن هم ظلوا فى أملاك الباشا . فعقدوا مجلساً ناطوا رياسته بعمى وهو أكبر رجال القبيلة

قال أبى : « تعلمون أن جميع المسلمين يكرهوننا نحن اليزيديين وقد كان الباشا يدعى صداقتنا ليأمن شرنا ولكى يستفيد من تسخيرنا ضد أعدائه ولكن حبه للمال أكبر من حب سواه ، وعددنا الآن لا يستطيع الثبات طويلا أمام جنوده خصوصاً وأن معنا نساء وأطفالاً تجب علينا حمايتهم فأنصح لكم بترك هذه القاطعة التركية والسفر إلى فارس حيث نجد المرعى خصبا والناس مسالمين »

فقال عم أبى : « إسمع يا أوخوس أغا ! إسمع يا ابن أخى ! أنت رأس هذه القبيلة وأنت أشجع رجالنا ، وإذا نصحت لك بأن تسلم لهم جواد الوهابيين احتقرتنى وقلت إنى غير جدير بأن أكون كردياً أو يزيدياً . وإذا أسلمته الآن إليهم بعدد رسولهم فاننا لا نخلص من نية الانتقام لأنى جربت حكام الأتراك وعرفت أنهم لا ينتهون عن الانتقام متى سنحت فرصة لذلك ، فأنا أرى رأيك فى الرحيل عن هذه البلاد التى لم يعد يحسن بنا البقاء فيها وقد تعودت منذ صباى أن أرى هذه البقاع وعز على أن أفارقها ، ولكن ذلك لا يصلح عذراً للبقاء الذى قد يكون فيه هلاك القبيلة ، وأرى ما دمنا عازمين على الرحيل أن نعجل به لأن التأخير شديد الخطر ولأنه قد لا يمر يومان أو ثلاثة أيام قبل أن يأتى جنود الباشا ليثأروا منا ، وقد يأتى الوقت الذى تعودون فيه إلى أماكنكم القديمة »

ولما فرغ عم أبي من الكلام قال أكبر الرعاة سناً وهو شيخ مجرب يعرف طرق البلاد معرفة جيدة : « إذا كنا ذاهبين فلنذهب فى الحال فان الثلوج التى على قمم الجبال قد أوشكت تذوب ولن نستطيع إذا تغير الفصل أن ننتقل بأغنامنا ومواشينا ولم يبق إلا ثلاثة أسابيع ثم تدخل الشمس فى برج الحمل »

قال أبى : « لقد صدق شيخ الرعاة » ثم التفت إليه وقال : « لقد أحسنت النصيحة ، وأنت خادم أمين وسأجزيك جزاء حسناً متى ابتعدنا عن متناول يد الباشا »

وعلى أثر هذا الاجتماع رفعت الخيام وحملت على ظهور الجياد والجمال ، ومشي الرعيان بالغنم وركب أبي الجواد الذي غنمه من الوهابيين

وكان النساء يبكين وينتحبن لأنهن لم يفهمن الأمر على حقيقته بل اعتقدن أن جنود الباشا على قاب قوسين منا وأنه لم يبق إلا يوم أو بعض يوم ثم يصبحن أسيرات في بيوت الأتراك »

قالت لي زينب : « أما أنا فقد كان لحزني سبب آخر هو يأسي مما كنت أعلل به نفسي بعد أن سمعت حديث أبي مع المرياخور فقد كنت أعتقد أني سأصبح زوجة للباشا

رأيت أحلامي تبددت دفعة واحدة فلا أمل لي في لبس الثياب الحريرية المزركشة ولا في سكني القصور العالية المفروشة بالأثاث الغالي ولا في التمتع بالسيادة على الجواري والخدم ولم يبق أمامي أي شيء غير ما كنت فيه من حلب الضرع وصنع الجبن والزبد

تحرك ركبنا وكان الطريق أمامنا مملوءاً بمواشينا إلى آخر حد تقع العين عليه . وكنا نختار الطرق التي بين الجبال حتى لا يرانا أحد فيبلغ أمرنا للباشا

وبعد بضعة أيام وصلنا إلى الحدود الفارسية ولم يحدث لنا في أثناء الطريق إلا مصاعب تافهة أيسر مما كنا ننتظر . وكان الفرسان مجتمعين مستعدين لملاقاة الجنود التركية وحربها . ولكن لحسن حظنا لم نقابل إلا جماعة من الرعاة فأخذنا مواشيهم وأسرناهم

ولما وصلنا إلى كرمان شاه ذهب أبي إلى مقر الحكومة فقابل الوالي وهو أحد أبناء الشاه فطلب إليه أن يحميه وأن يقطعه أرضاً من أملاكه . وكنا في انتظار أبي ونحن على أحر من الجمر لأنه كان من المحتمل ألا يكتفي الوالي برفض طلبه، بل يرسل إلينا جنوداً تحاربنا فنقع بين نارين نار الترك ونار الفرس

ولكن السياسة التي جرت عليها الدولتان كانت تقضي بأن تؤوي إحداهما كل قبيلة تلجأ إليها فراراً من الدولة الأخرى

وأخيراً عاد أبي ومعه ضابط من ضباط الأمير وأقطعنا أرضاً على بعد عشرة فراسخ وهي واسعة نقطعها سيراً في ثلاثة أيام ، وفي جانب منها جبال عزمنا على الاقامة فيها شتاء ، وأما الجانب الآخر فعزمنا على جعله مصيفاً

وكان اسم أبي مشهوراً في كرمان شاه، فلما استأذن على الأمير ليقابله أعرب سموه عن السرور بهذه المقابلة وخلع عليه خلعة سنية ووعده بحمايته وقال له : « إذا طلب الباشا تسليمك أو تسليم أي رجل من قبيلتك فاني لا أتردد في رفض طلبه حتى ولو أدى إلى إشهار الحرب عليه . إن أرض الله واسعة يا أوخوس أغا فاذا ضاق بك الأتراك ذرعاً فان بلادنا وصدورنا واسعة رحبة »

وقد كان ما توقعه الأمير ، فلم تمض إلا أيام قليلة حتى جاء إلى المدينة رسول من قبل الباشا يحمل خطاباً موقعاً عليه منه، وهو في هذا الخطاب يطلب تسليمنا ويذكر الأسباب التي أدت إلى جلائنا عن بلاده . وقد اتهم أبي في هذا الخطاب بأنه لص وبأنه سرق جواداً من أنفس الجياد، وهدد الباشا في آخر الخطاب بأنه إذا لم يصله الجواد على الأقل فان الحكومة الفارسية ستكون مسئولة عن النتائج

ولما وصل هذا الخطاب إلى الأمير استدعى أبي وعرفنا أن الباشا لن يترك جهداً في الحصول على الجواد والانتقام من أبي مهما كلفه ذلك . وخشينا أن يسلمنا الفرس بالرغم من وعد الأمير، لأننا يزيديون والمسلمون جميعاً يكرهوننا ، ولكن الفارسيين أشد كرهاً لنا وتعصباً علينا

وقبل أن يذهب أبي لمقابلة الأمير أصدر أوامر سرية بأن يوضع الجواد في مكان أمين وبأن ينكر

وجوده إذا طلب . ولكن لما عاد أبي من عند الأمير تبين لنا أن هذا الاحتياط لم تكن تقضي به الضرورة فان الأمير أحسن استقباله وقال له إنه لن يقبل مطلب الباشا مهما كانه ذلك ، إن لأبي أن يعلن أن الجواد لديه ويرتكن على حماية الأمير . وقال له : « اطمئن يا أوخوس ! كيف يدعى هذا الأحمق أنك من رعاياه مع أن مملكة أبي مفتوحة الأبواب لكل لاجئ ؟ أليس أبي ملك الملوك ؟ أليست حمايته مبسوطة على كل فرد مقيم في هذه البلاد ؟ إننا لن نكون مسلمين إذا أسلمناك لعدوك بعد أن استجرت بنا فاذهب إلى خيمتك هادىء البال »

كان لهذا القول رنة فرح بين سامعيه من الأكراد ، ودعا أبي كبراء القبيلة إلى وليمة وعلى أثر هذه الوليمة عقد منهم مجلساً للبحث في شئوننا وتدبير خطة للمستقبل ، وكان الجميع متفائلين بحسن هذا المستقبل والاغتباط بحماية الأمير الفارسي إلا رجلاً واحداً لم يكن لديه ما لديهم من التفاؤل ، وذلك هو عم أبي . وقال إنه يعرف الفارسيين معرفة جيدة وإنه خدم في عهد شبابه نادر شاه وإنه لا يجد في نفسه شيئاً من الثقة بوعد الأمير . وقال لرجال القبيلة : « أنتم لم تعاشروا هؤلاء القوم ولم تعرفوا عنهم مثل الذي أعرفه وهم لا يتخذون السلاح الظاهر كالسيوف والرماح ، وإنما سلاحهم الكيد والدس والخداع والكذب ، وأنتم مع شهرتكم بالتغلب في الميادين لا تستطيعون أن تحاربوهم بمثل هذا السلاح ، وإذا وثقتم واطمأننتم فلا تلبثون أن تجدوا أنفسكم في حبائلهم وقد حاق بكم من كيدهم ما لا تقدرونه ولا تقدرون على دفعه

إن الكذب يكاد يكون عيباً عاماً في هذه البلاد ودليلكم على ذلك أن الرجل منهم لا يكاد يقول جملة حتى يشفعها بيمين ، فهو يحلف برأسه وبرأس أبيه وبابنه وبالنبي وبجدوده وبالقبلة الشريفة وبرأس الشاه ويذقون الأولياء وبالموت الذي سيلاقيه وبالملح والخبز اللذين أكلهما ويشهد الحسين وعلي — على أن القسم بأي يمين من هذه الأيمان لا يدل إلا على أن القائل شديد الكذب وأنه يعتقد أن السامع لن يصدقه . والذي أفهمه من مسلك الأمير معنا هو أنه طامع في الجواد الذي جر علينا كل هذه المصائب فالفارسيون أشد من الترك رغبة في الخيل وهم أحرص من الوهابيين على الاحتفاظ بهذا الجواد لأنهم من الشيعة ، ولو علم الشاه أن لدينا هذا الجواد لأرسل إلينا في الحال فهل تريدون أن تحملوا السلاح في وجه العالم كله ؟ إن لكم رأيكم وأنا خاضع لما تتفقون عليه ولكنني أحذركم وأقدم لكم النصيحة بأن يكون عندكم مبدأ عام في شأن الفرس هو ألا تصدقوهم ولا تثقوا بهم »

وقد أظهر رجال القبيلة اقتناعهم بقول هذا الناصح المجرب . وفي فجر يوم من الأيام رأينا حركة غير عادية وسمعنا نباح الكلاب ولما كنا تعودناه عندما يحاول الذئاب السطو على الأغنام فقد ظننا الأمر كذلك في البداية ولكن أبي وأخي حملا بندقيتيهما وذهبا إلى المرعى حيث كانت الأغنام والكلاب . ورأينا قبل وصولهما إليه فارساً يعدو ثم رأينا خلفه فارساً آخر ووراءهما سبعة أو ثمانية من الفرسان ، وأخيراً تبين لنا أن خيامنا محفوفة بالجنود ، فصاح أبي ليوقظ رجال القبيلة وجرى نحوه الفارس الأول ليقتله ولكن أبي أطلق عليه رصاصة فقتله في الحال وضرب الفارس الثاني بسيفه فجرحه وكان صوت الرصاصة والضجة التي تلته علامة للجنود التي طوقتنا لتبدأ بالهجوم العام وقد ظهر أن الغرض من هذا الهجوم هو البحث عن الجواد لأن أول شيء فعلوه هو التفتيش في مربط الخيل وقد عرفنا أن الغزاة كانوا من الفارسيين وعرفنا

أيضاً أنهم مرسلون من قـ ... الرسمية
وكان من سوء الحظ أن ... قتله أبي
هو رئيسهم وكان ذلك سبباً لا ... ري
وكان ذلك اليوم من أيام البؤس ... ني يستحيل أن أنساها »

ثم أخذت زينب تروي كيف أسرأبو ... وكيف انتقلت من يد إلى يد حتى أصبحت جاريه في بيت ميرزا أحمد، وكان انزعابي عند سماع قصتها مثل انزعاجها وهي تروبها . ثم سمعت فجأة صوتاً يطرق الباب فتوصل إلى أن أسرع بالفرار من النافذة وكان الذي ... رق الباب هو الطبيب نفسه . وذهبت إلى الباب متحته .

ولما خرجت من النافذة وقفت أطل منها ورأيت الطبيب ، وقد تهلل وجهه بالبشر لرؤيته زينب وحدها بالمنزل، وقال لها كلمات في نهاية الرقة ثم نظر إلى باب غرفته فرأى بقايا الطعام فسألها عن سبب ذلك وقبل أن يسـ ... الجواب جلس ودعاها إلى الجلوس بجنبه وأخذ يـ ... وعلى حين فجأة دخلت زوجته ووراءها سائر الـ ... ففاجأتهما قبل أن يتفرقا . وإذا نسيت شيئاً ... ذي طرتها إليه ومسلكها الذي سلكته نحوه

قالت بلهجة الساخر : « السلام عليكما ، أتمنى لكما الصحة والهناء وأخشى أن يكون مجيئي مبكراً قد أزعج راحتكما »

ثم صعد الدم إلى وجهها واصطكت أسنانها وقالت بصوت يتهدج : « ... ن طعام الأفطار في غرفتي أيضاً ؟ ما شاء ... ما شاء الله ! لقد أذللتني واحتقرتني ياسيدي أحمد! أفي غرفتي وفوق فراشي ! ؟ لقد سقطت السماء إلى الأرض ! هل تعد نفسك بعد الآن رجلاً بين الرجال؟ ألا تخجل حين يدعونك الناس طبيباً وحين يلقبونك بلقمان عصرك ؟ لعنة الله عليك وسخرية واستهزاء بلحيتك البيضاء ! »

ثم أشارت بأصبعها إلى عينيه وقالت : « أنا أبصق على وجهك ! من أنا حتى تفضل على جارية قذرة من جواري منزلي ؟ ما الذي فعلت حتى تهينني هذه الأهانة ؟ إنك كنت خامل الذكر قبل زواجي فجعلت منك رجلاً وسهلت لك الطريق لدخول القصر الملكي والوقوف أمام الشاه وجعلتك رئيساً لأطبائه »

وكان الطبيب في هذه الأثناء يقسم أغلظ الايمان على براءته ولكن ذلك لم يهدئ من غضب الزوجة ولم يقف تيار سخطها

ثم تركت زوجها والتفتت إلى زينب فأسمعتها كل مؤلمة جارحة من القول ولم تكتف بالكلام بل صارت تجرها من شعرها ومن ثيابها فصارت الفتاة تصرخ من الألم . ثم أمرت الجواري بأن ينقلنها إلى غرفة أخرى فنقلنها وضربنها حتى أدمين جلدها وكنت أحترق في هذه الآونة من الاشفاق وحدثتني نفسي بأن أدخل المنزل لانقاذها مهما كانت النتائج وأحسست أن دمي صار في مثل حرارة النار ولكن ما الذي أستطيع أن أفعل ؟ إنني إن دخلت فلن يكون نصيبها ونصيبي غير الموت. ولما هدأت الحالة تركت النافذة ومشيت في الطريق حتى ابتعدت عن المدينة وأنا أدبر خطة لاخراج زينب من هذا البيت والتزوج منها . لكن كيف يمكن ذلك مع بقائي في خدمة الطبيب وكيف أحصل على الرزق إن تركته؟ هذا هو السؤال الذي كان يشغل التفكير فيه كل خواطري

وأحسست أن قلبي يدمى كلما فكرت في مصير تلك المسكينة لأني سمعت أشياء كثيرة عما يجري في البيوت الفارسية وأيقنت أن اضطهاد السيدة لها لن يخف لا في الحال ولا في الاستقبال

« يتبع »

عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان - هامبرسم ﴾